رواية
مؤمنة محمود
وكان الشّيطان ملاكًا

وكان الشيطان ملاكاً

رواية

مؤمنة محمود

وكان الشيطان ملاكاً

رواية

مؤمنة محمود

تدقيق لغوي

عبد الله راتب النفاخ

غلاف

جواد سبيعي

الإهداء

إلى صديقتي السودانية روابي التي قالت لي ذات يوم "لا أستطيع الكتابة عن آلام وطني" فأخبرتها حينها أن آلام وطننا تجبرنا أن نكتب عنها.

ومنها

إلى وطني العزيز سوريتي أهديها ما خطّت يداي

ستبقى يا وطني نبراساً ينير طرقاتنا المظلمة.

الطفل الذي لا تحتضنه القبيلة يعود إليها ويحرقها ليشعر بدفئها.

"مثل إفريقي"

الفصل الأول

"أنتَ ملاك يا مالك" كانت هذه آخر جملة قصيرة سمعها من والدته قبل أن يُفتَح ذاك الباب، ويا ليته لم يفُتَح، لم يعلم أن حياته ستتغيّر بعد فتحه.

وقف في شرفته، استند بمرفقيه على السور الحديدي، يتأمّل المدينة الغارقة في الظلام، سحب لفافة تبغ من علبته وأشعلها، نفث دخانها وكأن ما يحترق فؤاده دون أن يبالي بالدخان المتصاعد من الأبنية المدمّرة. اعتدل واقفاً يرتجف برداً، نظر إلى الأفق وشرد في هذه الثلوج المتساقطة على المدينة، ثلوج ديسمبر كانت قاسية هذا العام كقسوة ساكنيها. ارتشف قليلاً من فنجان قهوته، يا إلهي! مذاقه سيء، لا يشبه تلك القهوة التي كانت تصنعها صبا وكان يختلسها ويشربها حين تنشغل بأمرٍ ما، وحين تعود إليها تظنّ أنها احتستها، لا أحد يستطيع صنع الأشياء المبهجة إلا صبا، قلبها نقي كقلوب الأمهات، لكن لا ينكر أن في قلبه عتاب كبير عليها، لم ينسَ تلك الليلة التي هربت فيها وتركته وحده يتجرّع ويلات حرب آثمة، وحيداً لا يعرف ما يحصل فوق الأرض.

إنه هادئ الآن، لم يعد ينتظر النجدة من أحد، ولم يعد يهتم بخذلانهم، لن يفني عمره بالبحث في الطرقات عن سندٍ لازمه يوماً إذ علّم نفسه أن يحتضن ذاته بعد كل خيبة وألم، لطالما عوّد يده اليمنى أن تحتضن يده اليسرى كي يمنع نفسه من السقوط. لم يسمع شكواه ونحيبه أحد، باستثناء سارة التي احتضنته حين سقوطه، وتحمّلت قسوة عينيه دون أن تشتكي، فعلت ما لم تفعله صبا، بالرغم من أن هذه الأخيرة اعتنت به وتحدّت الجميع ليعيش بينهم، إلا أنه لم يدعها تراه حزيناً متألماً، كان دائماً مبتسماً في وجهها لتشرق روحها وتزيل همّه عن صدرها، لكن الجانب المظلم من حياته لم تره ولم تسمعه إلا سارة.

نجا بنفسه بعد كل الحروب التي خاضها، وخرج منها بأقل الخسائر، تألّم كثيراً في ليالي الشتاء الباردة، إلى الآن لم يخرج ذاك البرد من جسده، فقد احتل أوردته وشراييه، احتلّ ركناً في قلبه فجمّد مشاعره، وحين التقى سارة كان خالياً ولم يستطع أن يبثّها عواطفه، رغم أنها لازمته طيلة حياته المؤلمة، وكانت معه في رحلته الشاقة بحثاً عن الجنة المفقودة، سعت جاهدة لمنحه الأمان لعلّه يمنح صك الغفران لأهل مدينته، لكنه استشرس كثيراً وزأر في وجهها كنمر جريح "لن يرحم من عاش فيها"، لطالما كان غريباً عنها، حتى ذاك البيت الذي من المفترض أن يكون بيته كان غريباً، مع الأسف كانوا أهله والوطن كان وطنه.

وقفت سارة خلفه، مالت برأسها إلى الباب واستندت إليه، تنظر إلى ظلام المدينة التي كساها الثلج بياضه الناصع، تتأمل سحب الدخان الأسود الصاعد من أبنيتها تارة، وتارة أخرى إلى مالك ذي الوجه القاسي، لم يكن بهذه القسوة حين التقته، لطالما كان هادئاً ولطيفاً، يفتّش في جيب الوطن عن بيتٍ يدفئه من صقيع الشتاء، يبحث في الركام عن طعام يشبع معدته وماء يروي عطشه، يفتّش عن مأوى يبيت فيه ليلته بعيداً عن أرصفة تدوس عليه الأقدام. لكن هذا المالك لا تعرفه، هذا الهدوء الصادر عنه لا يطمئنها، في عينيه قسوة غليظة جعلتها تخشاه.

ألم تقاسِ الآلام مثله؟ ألم تتجرّع كأس المنون مثله؟ ألم يكن لها منزلٌ كبيرٌ وعائلة حنونة وحارة تلعب فيها، ملابس كثيرة، أطعمة متنوعة، وفراش وثير دافئ، لكن خسرت كل شيء في هذه الحرب، وغدت مثله مشرّدة على أرصفة الوطن، تبيع المناديل الورقية لتشتري القليل من الطعام فتُشبِع

معدتها، ومع كلّ ما سبق لم تفكّر مثله في الانتقام من وطنها، يكفيها أنها مازالت تعيش على أرضه.

شعر بها خلفه، نظر إلى عينيها، كانت تحمل حزناً بين أهدابها، لا يستطيع العالم رؤيتها، لم يخفَ أمر حزنها عن مالك، تأملتْ عينيه فلم تجد نفسها فيهما، لطالما رأت وهج الحب يشعّ منهما، لكنها الآن أدركت أنه ما كان إلا انعكاساً لعينيها، صبا والوطن سيبقيان حائلاً بينهما، أدركت بفطرة الأنثى أن مالكاً شارداً في تلك المرأة المعجزة التي مرّ على غيابها سنوات ولم يستطع نسيانها.

استدار إليها واقترب منها، ضمّها إلى صدره، بكت وانتحبت كثيراً، كانت بحاجة إلى حضنه، ظلّت تشهق ولا تريد الابتعاد، تريد حياة هادئة لا يشوبها شائبة، لكنه مازال مصرّاً على الانتقام.

معها يختلف كلياً، يتخلّى عن قسوته لأجل عينيها، فهي من ساندته في أوقات شقائه.

في حياته امرأتان، لا يقدر على نسيانهما _صبا وسارة_ الأولى كانت له أماً ورفيقة في الجزء الأول من حياته، والثانية كانت له صديقة وحبيبة ثم زوجة في الجزء الثاني من حياته، لم تنفر ولم تخف منه ولم تتنمّر عليه يوماً، بل كانت رفيقة رحلته بوجهها الصبوح، أبعدت سارة وجهها عنه قائلة:

- أوقف الحرب.

مسح دموعها المنسكبة على وجنتيها وقال:

- وهل أنا من أشعلها؟
- لم توقد شرارتها الأولى، وكنتَ من ضحاياها ذات يوم، لكنّك الآن في موقع يؤهّلكَ لإيقافها، قد أصبحتَ رجلاً ذا قيمة، في إمكانه إيقاف الحروب بكلمة منه.
- ماذا تعرفين عن الحرب يا سارة؟
- لم أنسَ صقيع الخوف الذي لازمني على الدوام، ولا وحشة الترقّب وأنا أتأمّل جثث عائلتي، أخبرني أنتَ ما تعرفه عن الحرب؟
- شاب مذعور لم يعرف من الحياة إلا الحرب، شاب خرج من سجنه ليتعرّف ماهيّة الحياة فكانت القذائف تدكّ حصون المدينة، دمى متناثرة وأطفال ضلّوا طريقهم، دارٌ فرّت منها الأسرة وتركت الشاي ساخناً على الطاولة، أصوات ضحكات الأطفال في ذاك البيت وغابت من بينها ضحكاتي.
- لذلك أطلب منك إيقاف الحرب، لا تقتل الوطن.
- وما الوطن؟
- نحن الوطن، الوطن لا يموت من الحرب، ينهض بعدها، لكنه يموت من خذلان ابنه له.

صرخ في وجهها حتّى دبّ الرعب في أوصالها:

- لستُ ابنه، لم أكن يوماً ابناً لهذا الوطن، لطالما احتضن الجميع وعجز عن احتضاني، ذاك البيت كانت أبوابه مشرَعة للجميع، وساحته مرتعاً للغرباء، لكنه ضاق بي، مازلتُ أسمع ضحكاتهم

وهم يتراكضون حول البحيرة الصغيرة، يتراشقون بالمياه، وأنا في سجني أعدّ الأيام لأخرج.

سكت قليلاً، تنهد بألم، وقال بصوتٍ هادئ:

– لم يحتضنَّي الوطن وتركني وحيداً منبوذاً على قارعة الطرقات.

تأملت أوجاعه، هي تدرك معاناته، فقد استمعت إلى حكايته كثيراً وودّت لو تنسيه آلامه التي عشَّشت في ذاكرته رافضة الرحيل.

قبل اثنان وثلاثون عاماً:

كان غسان دائم الترحال، شاباً محباً للمغامرات، سافر إلى مدنٍ كثيرة بحكم تجارته وعشقه للأسفار إذ كان كالطير المهاجر، ما إن يعود إلا ويرحل مجدداً، وهذا ضايق والديه كثيراً، لكنه ما استمع يوماً إلى صوتهما. ظلّ على هذا المنوال حتّى لقّب بالطير الشريد، فأينما كانت وجهته وضع زاده واستقر أياماً في تلك البلاد فلا يرجع إلى وطنه إلا بعد أن يملّ منها، وبخلاف أخويه أشرف ووليد اللذين كانا لا يحبّان الأسفار، واستقرّت تجارتهما داخل حدود المدينة. فقد اتخذ لنفسه عهداً ألا يمكث في مدينة فترة طويلة، وهذا ما جعله متعدد الأسفار والعلاقات الخاصة، إذ كان يهتم كثيراً بجماله والمال هو الذي يجعل من الفقير أميراً، ففي كل بلد حكاية حبّ مكللة بالأكاذيب، في كل مدينة عهود حبّ مزيّفة، امتلأت حياته بالعاشقات المحبّات للمال والجمال والكلام المعسول، انجذبن إليه كما ينجذب النمل لحبيبات السكر، أسكرهنّ عشقاً حتى الثمالة فلم يرتوين وطالبنه بالمزيد.

وحدها سوسن من رفضته واستهزأت بغروره، لم تكن جميلة بل عادية الملامح، ذات بشرة حنطيّة تميل إلى السمرة، بشعرٍ فحمي قصير، استوقفته شراستها ونظراتها التي تحتقره، فراهن الجميع على الإيقاع بها، وجعلها ترضخ له.

جلس في المقهى وحوله اجتمع رجال الحي، أخبرهم أنها ستغدو عشيقته ذات يوم، وستنضم إلى ركب نسائه الجميلات، سخروا منه

وضحكوا، لأنهم يعرفون شراسة سوسن وعنفوانها، لن ترضخ له مهما حاول الاقتراب منها.

لم تهتم به اهتمامها برجل، فهي تعرف أن رجلاً محبّاً للأسفار لن يكون له انتماء لمكان، ولن ينتمي لامرأة واحدة، سيبقى الترحال جزءاً أساسياً منه وسيظلّ في كل بلدٍ يرحل إليها بيتٌ يؤويه مع امرأة جميلة، لذلك ابتعدت عنه غير عابئة به على حين اقترب منها.

كان يتودد إليها بين الفينة والأخرى، على أن مدينتها تبعد عن مدينته نحو ٢٤٨كم لكن ذلك لم يعقه عن السفر إليها مرّات عدّة في شهرٍ واحد. عشق مدينتها لأنها أحيت عنده روح التحدّي، أغرقها بالهدايا وما اكترثت، أسمعها حلو الكلام وما استجابت، أوقفها في الدرب كثيراً فبدأت تغيّر مسارها لئلّا تلتقيه.

هربت من حبٍّ لا ترغب فيه، حتى أوقفها ذات نهار يطلبُ منها سبباً لرفضها، كانت أجوبتها كثيرة، إن كان هناك سبب واحد لقبولها فلرفضها عشرات الأسباب، فاختصرت الكلمات بقولها:

- لا أمان لطير شريد في السماء، كل الأجواء ملكه، وعلى الأرض ليس له مكان، يؤسفني أنك لا تنتمي إلى مكان ومن لا ينتمي إلى مكان لن ينتمي إلى امرأة واحدة ولن تكفيه أبداً.

صمتَ قليلاً، فهذه المرأة ذكية، لذلك سيسعى إليها وإن كلّفته كل ما يملك، المرأة الذكية دوماً تكون محطّ إعجاب جميع الرجال، قال بعد صمت حيّره بعد أن حيّرها:

- ربما هذه المرأة مع الأيام تقصُّ جناحي الطائر، فتجعله ينتمي إلى مكانها رغماً عنه، حيث تكونين أكون.

ابتسمت بسخرية وقال بنبرة متهكّمة فشعر بها:

- كلنا نملك لساناً يروي حلو الكلام، يطلق العهود والوعود، لكن عند الأفعال تُبتَر أقدامنا وتخرس ألسنتنا، ما أنت إلا لقلق مهاجر، لن تمكث في ديار، واللقلق دائماً ما يعود إلى موطنه مرّة كل عام، يهاجر كثيراً ويرى عوالم جديدة مختلفة، لكنه في نهاية الأمر يعود إلى مكانه الأول.
- لكنه يرجع إلى ديارٍ أخرى رسم فيها ذكرياته وأحلامه.
- ربما يطول البعد وتطويه الأيام فلا يعود، وربّما يغيّر الخارطة ويرحل إلى سماء أخرى، الطير الشريد في كل مدينة له غصن مع الأسف لا أستطيع أن أظلّ غصناً ينتظر طيراً لن يأتيه.
- أخبرتك أني سأظل هنا، لأجلك سأغيّر عاداتي، وسأمكث في مدينة لا تخصّني، أعيش غريباً فيها كي أحظى بك.

نظرت إليه قليلاً، تنهدت بصوتٍ مسموع، وقالت بهدوء:

- أنا وأنت من مدينتين بعيدتين كل البعد عن بعضهما، لا تعقد الأمل على قبولي، لن يربطنا رباط مقدّس أبداً.

غادرته وما ندمت، تركته وما سألت، أما هو فظلّ شارد العقل بما قالته، إنها امرأة صعبة المنال وحلّ لغزها قد يبدو مستحيلاً، أول مرّة يمرّ بمعضلة كهذه، لا يعرف مفتاح امرأة.

ظل يجوب الشوارع باحثاً عن حلٍ لامرأة استعصت عليه، تحدّث في الهاتف مع عشيقاته لعله ينساها، لكنها تعود إلى ذهنه بكلامها، لا يستطيع إخراجها من عقله، ولم تستطع امرأة من نسائه أن تنسيه إياها، كيف السبيل إلى قلبها وقد أوصدته في وجهه بمئات المفاتيح.

خائف من الفشل، هذه أول مرة يفشل أمام إحداهن، من تكون لترفضه، وهو يفوقها جمالاً، هو من يحقّ له الغرور لا هي، مع أنه استمع إلى أعذارها لكن رفضها له بكل جرأة شُلَّ فيه الإرادة.

غادرها وعاد إلى دياره، استمع إلى طلب والديه المتكرر بشأن زواجه، رفض إتمام كل شيء قبل أن ينال من تلك المتعجرفة، وبعدها يفكر في الزواج. أعدّ الخطط للنيل منها، ظلّ ساهراً طوال الليل يفكّر في قلب المعادلة لصالحه، يريدها بأيّة طريقة، الآن ليست المسألة مسألة رهان في مقهى قديم، المسألة أشد خطورة، هنا كرامة قد هُدِرَت.

عاد إليها ذات نهار صيفي في أواخر يوليو، وجدها تلبي زبائن المقهى بوجهها الصبوح وابتسامتها العذبة مع أن عينيها يسكنهما الإرهاق.

جلس على كرسي خشبي أمام طاولة صغيرة، انتظرها كي تأتيه بكأس الشاي خاصته، اقتربت من طاولته بعد ساعة من جلوسه، أتعبه الانتظار لكنه كان يتأمّل تعبها الواضح، تجاهلته عمداً، فهي تدرك أنه لن يدع أحد غيرها يقوم على خدمته، قدّمت له كأس الشاي دون ابتسامة، ذهل من تصرّفها، وقد كان ظنّ أنه إن تأخّر بالعودة إليها فإنها ستأتيه راكضة لاعنة المسافات والخرائط الطويلة ومعترفة بغرامه. قال لها قبل أن توشك على الرحيل:

- تأخرتِ عليّ هذه المرة، ظننتُكِ قد نسيتني.

أجابته بعينين تفيضان قوّة:

- حاولتُ ذلك، ولكن كلّما هممتُ بنسيانك وجدتني أتعثّر بك.
- ألا يبدو هذا لكِ أني أصبحتُ شخصاً مألوفاً لديكِ، وربّما مع الأيام قد أصبح شخصاً مهماً في نظرك.
- هلّ صوّر لك غرورك كل هذه الأشياء، رويدك يا هذا وتمهّل قليلاً ولا تطلق أحكامك السخيفة، كل ما في الأمر أنني أرغب في العيش بسلام بعيداً عنك وعن أحلامك الثقيلة على قلبي.
- وأنا ما عدتُ إليكِ إلا لأنني راغب بكِ.
- عدتَ لأنك طير حرّ لا تليق بك القيود، وكما أخبرتك سابقاً أنت مهما سافرت فستميل إلى بلدٍ جعلتك رجلاً، ستظل مسافراً وستعود يوماً إليها.
- لمَ لا تجرّبين الحب مثلي؟ كفاكِ فلسفة لا تفيدنا.
- وما يفيدني حبّك؟ ستؤلمني معدتي، سيصرخ قولوني من الوجع، سيهرب قلبي مني وتشيخ روحي، وأعيش بجسد لا روح فيه، وجّه هذا الحب لامرأة غيري ترغب به.
- وأنا لا أريد امرأة سواكِ، أرجوك اقبلي حبي ولا ترفضيه.
- لا أستطيع. ابتعد عن ساحتي ولا تمر من طريق أعبره، ولا تدخل هذا المقهى مجدداً.

غادرته دون أن تسمع ردّه، لا تستطيع منح الثقة لشخص دائم الأسفار، ليس له انتماء لأرض ولن يكون له انتماء لامرأة، شخص يعدُّ كل المدن مدنه وفي كل مدينة امرأة تنتظره، أخبرته من قبل أنها لن تظل غصناً ينتظر الفصول جميعها ليأتيها طيرها الشريد.

ظلّ على هذه الحال عاماً كاملاً ولم ييئس ولم ترضخ، ملّ منها ومن رفضها المتكرر، اجتمع في مقهى آخر بأصحابه، أخبرهم بما توصّل إليه، لا يعرف السبيل إلى وصالها، أخبروه بخطط كثيرة، لكنها تتطلّب أشهراً وربّما أعواماً ليحصد نتائجها، لن يطيق الصبر، يريدها اليوم وليس غداً، قال له أصغرهم قامة "تزوجها وستكون لك كالخاتم في إصبعك، حينها ستدرك أن الأمر ليس مجرّد لهو وإنما حقيقة متجسّدة"، ضحك وسخر من عرض هذا الأحمق، هو رجل لا يحب القيود، لن يتزوجها أبداً، سيمتلكها دون زواج، لكنها ترفض الحديث معه فكيف يجرّها إلى وكره المزعوم وتصبح ضمن قافلة عشيقاته.

ظلّ النقاش دائراً بينهما إلى منتصف الليل، ولم ينتهِ إلا بعد أن حدّثه صاحبه ذو الشعر المجعّد عن أخذها عنوة:

- إن لم تكن لك بإرادتها، فاسلبها إياها، وخذ منها ما تشاء، ستكون حينها ملكاً لك ولن تتحرّك من مكانها دون مشورتك. ستكون جاريتك وأنت الأمير، تأمرها فتطيع.

لمعت عيناه وأعجب بهذه الفكرة.

ظلّ أياماً يحوم حول المقهى الذي تعمل فيه ينتظر خروجها، كان مقدِّراً أن ينتهي دوامها في التاسعة، لكنها لم تستطع الخروج إلا في العاشرة بسبب

تنظيف المقهى. كان ينتظرها ملثّماً لئلّا تعرفه، مشت في الطريق خائفة، لا أحد في الشوارع بسبب برودة الطقس، الكل يحتمي في بيته، يدفئ نفسه، لا أصوات إلا نباح الكلاب الشاردة الآتية من أطراف المدينة. كانت تمشي شاردة بهذا المعجب الغامض، لا تعرف عنه شيئاً وفي المقابل يعرف عنها كل شيء، كل ما يحيط به أسرار عجيبة، كلّما حاولت فك لغز فاجأها بمجموعة من الألغاز، كلّما سألته سؤالاً أجابها إجابات عديدة ولها أن تختار إحداها، إنه رجل صعب، ليس بهيّن ولن تسلّم قلبها لرجل مثله.

وصلت إلى زقاق ضيّق، في العادة هي لا تخاف ظلمة الليالي، إنها معتادة على العودة متأخّرة، لكنها شعرت بانقباض في قلبها، وكأنّ الليل يخبّئ لها أمراً غامضاً، لطالما لفّ الأمان المدينة، وقلّما سمع الناس عن سرقة أو اختطاف أو جريمة قتل، وكانت أوّل حادثة اختطاف تتعرّض لها وتكون بطلتها، كمم فمها بمنديل عليه مخدّر، لا تعرف كيف ظهر خلفها وهاجمها بغتة، لم تشعر بخطوات أحد خلفها كأنّه ماهر في مثل هذه الألعاب. أخذها إلى بيت رفيقه الذي أشار عليه بهذه الخطّة وهناك فعل بها ما لا يمكن للعقل البشري أن يتصوّره، تركها غارقة بدمائها، وكتب لها ورقة وداع من كلمتين وغادرها للأبد.

لم يكن صباحاً عادياً، وليتها ما أشرقت عليها شمس الصباح ولا أفاقت من غفوتها، استيقظت وهي في بيتها كأن أحدهم حملها إليه، كلّهم علم بما حلّ بها، الجيران حولها ينظرون لها باحتقار، وقبل أن تدرك ما جرى بدأ الجيران يشتمونها بعبارات لاذعة، رموها بأسوأ الكلمات، وصفوها بأبشع الصفات.

وحين فهمت ما حلّ بها كان الجمع قد انفضّ، لم يمهلوها دقيقة لتفهم إلام يلمّحون، لم يفهموا ما جرى، ولم يسألوها عن المسألة، عيّنوا أنفسهم قضاة وحكموا عليها بالجلد بكلامهم الوحشي دون أن يسمعوا منها، نظرت إلى جوارها تبحث عن والدتها، كانت تبكي بعيداً عنها، تحتضن نفسها من نظراتهم، اقتربت بعد أن رحلوا وأعطتها ورقة كانت بجانبها (ربحتُ الرهان، وداعاً) أيَّ رهان يقصد؟ أسلبَ روحها بطريقة غير آدميّة تسمى انتصار؟ من المؤكد أنه يقيم احتفالاً الآن في المقهى مع رفاق السوء، كانت على حق حين أخبرته أنها لا تثق به مطلقاً، لقد ذبحها أمام قبيلتها دون أن يرأف بضعفها ومع الأسف شاركه أبناء جلدتها.

نزلت دمعتها وانهمر بعدها سيل من الدموع أحرق وجنتيها ولم تسأل، فقد كانت دموع قلبها أشدّ حرقة وفتكاً بها، ضمّتها أمها إلى صدرها، تخفي فيه حزن اليتيمة، وشاركتها الدموع بسبب ضياع أغلى ما تملكه الفتاة، لم تسألها أمها عن الحكاية، فهي تعرف أن ابنتها بريئة مما نُسب إليها، لكن المجتمع لا يرحم أنثى تقع في شرك ذئاب بريّة، رغم أن الجميع عرفوا ما حصل لها بالتفاصيل، إلا أنهم زادوا من حرارة الكي فأحرقوها بكلماتهم، فمنهم من قال "إنها لولا رضاها لما فعل بها ذلك"، ومنهم من يقول "إنها أغوته"، ومنهم ردّ السبب إلى خروجها بمفردها ليلاً والشوارع فارغة.

قررت والدتها بعد أيامٍ من عزلتهما ترك المدينة بمن فيها، أخذت ابنتها وغادرت أرضاً شهدت على نحرها وكان الناحرون أبناء وطنها ومدينتها وحارتها، أعانوا الغريب على سرقة روحها دون أن يقف في وجهه رجل واحد.

صرخت في وجوههم قبل أن ترحل أن هذه المدينة لا تسكنها إلا النساء، لم ترَ رجلاً واحداً فيها، ومدينة تسكنها النساء ستظلّ محطة للخراب ولن تعمر أبداً، سيظل القيل والقال هو الدائر فيها وسيظلّون منشغولين عن حياتهم بأحوال غيرهم البائسة.

وقف الرجال مطأطئين رؤوسهم، أدركوا أخيراً أن كلامها صحيح وأنهم تجاوزوا في أخلاقهم حتى أعانوا الغريب على ذبحها دون أن يوقفوه وهي واحدة من بناتهم، إنها ابنة مدينتهم وكانت ستستنجد بهم لو أنها واعية، فرّت ووالدتها من بيئة قذرة لم تعد تأمن على نفسها فيها، فأحياناً تكون الحياة في الغربة جميلة بين أهلٍ محبين، وتكون سيّئة في الوطن والأهل مبغضين.

عودة إلى الحاضر

جلس مالك على الأريكة يشاهد الأخبار على شاشة التلفاز، كان هناك شاب من المدينة، يصرخ ويبكي لأن عائلته قد احترقت جرّاء انفجار سيّارتهم وهم هاربون من المدينة، لم يرفّ له جفن، فقد اعتاد على هذه المشاهد الدموية، بينما سارة انسكبت دموعها إذ جال في ذهنها ذكرى استشهاد عائلتها، نظر إليها، فلمح سحب الدموع وهي تغطّي وجنتيها، زفر بعنف إذ لطالما غضب من ضعفها، قال لها:

- ما دمتِ بهذا الضعف لن يكون لكِ مكانُ في هذا العالم.
- الوطن وطني وهي مدينتي، سأظل أرثي أهلها لأني ابنتهم.

أطفأ التلفاز ورمى جهاز التحكم جانباً، وهدر في وجهها:

- أوّل كلمة قالتها رندة "مكانك ليس هنا"، أوّل كلمة قالها المشرّدون "مكانك ليس هنا"، وأوّل كلمة قالها الطبيب "مكانك ليس هنا"، هم وزّعوا الأماكن واختاروا لأقربائهم أجملها، حتى الأرصفة باعوها، لم يتبقَّ لنا مكانٌ نبيت فيه، ثم تقولين إنه وطننا، هل الوطن حماكِ من التشرّد والضياع؟

- أسوأ ما في الحرب يا مالك أننا نستخدم أفضل ما لدينا لممارسة أبشع ما لدينا، لا ذنب للوطن بما فعلوه، لا تحرق مدينة كاملة من أجل بيت لم يعترف بك، لا ذنب للجميع بماضيك.

ثمّ صرخت في وجهه:

- ارحم من فيها، جميعهم مثلنا لا يرغبون من هذه الحياة إلا بالحياة.

تركته مصدوماً مصعوقاً، هذه أول مرة يرتفع صوتها في حضرته وتصرخ في وجهه، لطالما كانت أرنباً صغيراً أمامه. أشعل التلفاز مرّة أخرى، احتدت نظرات عينيه بوعيد الانتقام والثأر، لن يهدأ أبداً إلا بعد أن يرى مجرمي مدينته يشتعلون أمام عينيه، هم زرعوا وهو سيحصد ما زرعوه، يسعده عويل النساء المنتحبات على رجالهن، تسرّه رؤية بيوتهم محّطمة، وسيظلّ شاهداً على مدينة نوت الخراب فحقق لها نيّاتها، ومع أنه يدرك أن عائلته مازالت فيها ولم يغادر أحد منهم فلم يشفع ذلك لهم، يتمنى أن يتعثّر بأحدهم ولاسيما صبا، ماذا سيكون موقفها حين تراه ماكثاً أمامها، هل ستعرفه؟ طبعاً، فهي رفيقة أيامه، لا يعقل أن تنساه.

أطفأ التلفاز وغادر إلى غرفته، اقترب من سارة، كانت مستلقية على الفراش تولّيه ظهرها، مازالت صغيرة، تحرّكها عواطفها، فهي جيّاشة المشاعر، عكسه تماماً، خلع سترته ورماها على الأريكة، نظر إلى نفسه في المرآة،

تأمّل عينيه القاسيتين، إنه بذرة الخطيئة وكل ما حصل سببه هذه البذرة التي نبتت في تربة فاسدة، لذلك الكلّ أزهر في ذاك البيت إلا هو، ظلّ برعماً صغيراً، حتى الربيع عجز عن إزهاره، فظلّت أيامه خريفاً يعقبه خريف.

ومع ذلك يعجبه هذا الوجه على خلاف ذاك الوجه القبيح، مرّ وقت طويل على آخر مرّة نظر في المرآة، يعجبه ثباته هذا فإنه يقوّيه وينجّيه من ضربات الحياة. الآن أصبح أقوى وعلى الجميع أن يخافه، لن يساير الواقع كما في السابق، ولن يتغيّر لأجل أحد، سيكون كما يريد وعلى الجميع تقديم الولاء والطاعة له، إنه وسيم الآن ذو وجه ملائكي، اختفى وجه الشيطان وحلّ محلّه وجه ملائكي بعيون شيطانيّة، تلك العينان كانتا بريئتان، لكنْ هاتان العينان مجرمتان.

ألقى نظرة على سارة، يدرك أنها عانت معه ومازالت تعاني، لن يدعها ترحل عنه فهي بلا مأوى، ولا مكان لها إلا بيته، لن يستمع إلى هذيانها بشأن الوطن، سيظل يحارب الجميع إلى أن يفوز.

قطع رنين هاتفه أفكاره، حمله وخرج إلى الشرفة لئلّا يوقظها، ردّ على المتصل، انبسطت ملامح وجهه، كان لدى المتصل أخبارٌ ذات قيمة في أرض المدينة، فله في كل حارة عين ورقيب، أغلق المكالمة، عرف الآن مكان وجود أفراد عائلته، سِعِدَ لأنه لم يختر أحدهم الهجرة وظلّوا تحت سماء

المدينة، الآن هم تحت المجهر، سيبدأ ببث الفزع في قلوبهم ويزعزع عيشهم المستقرّ إلى حدٍّ ما.

قبل ثلاثون عاماً

بعد مرور تسعة أشهر كانت آلام المخاض شديدة على سوسن، صرخت بشدّة، بقهرٍ، بألم وهي تلد بذرة الخطيئة، لم تستطع والدتها أخذها إلى المشفى كي لا تثير التساؤلات عن هويّة والده وتخضع للقيل والقال، اكتفت بقابلة القرية ووافقت الأخيرة بعد أن أخبرتها بوفاة زوج ابنتها في حادث سيارة، ظلّت ساعات تستغيث وتدعو خالقها كي يرحمها من هذه الآلام، كانت ولادتها متعسّرة للغاية، جلست والدتها تدعو الله أن ينجي ابنتها ويخلّصها من آلام الولادة، عضّت على شفتها السفلى وبكت قهراً على أحداث تلك الليلة المؤسفة، وتفاصيلها تُعاد في ذاكراتها مع كلام الناس الذين لم يرحموا ضعفها، صرخت القابلة كي تساعدها فانتبهت والدتها من شرودها وكثّفت دعواتها. حتى نزل الصبي أخيراً إلى دنيا لم ترحّب به يوماً، تنهّدت سوسن أخيراً، وسمحت لدموعها بالانسكاب، فيما سجدت والدتها شكراً لله على نجاتها، وحمدت القابلة الله، مسحت العرق المتصبب من جبينها، كانت الولادة قاسية واستغرقت ساعات قبل أن يحلّ عليهم هذا الضيف، حملته القابلة بين يديها، صرخت فزعةً وقالت دون اكتراث لكلامها الجارح:

– وكأنّ هذا الحمل كان من الشيطان حتى أنجب رحمك مسخاً يشبهه.

نهرتها والدة سوسن على كلامها الذي خرج من فيها دون أن تزنه، أخذت منها الصبي، نظرت إليه وأشفقت على حاله وحال والدته، لقد كان قبيحاً وكأنّه الشيطان بعينه، مدّت يدها به إلى سوسن طالبة منها أن تحتضنه ليشتمّ رائحتها.

نظفت المكان بعد مغادرة القابلة، ظلت تلك تحتضن صغيرها وتبكي دون دموع، حاولت والدتها تهدئتها لئلّا يحصل لها مضاعفات ما بعد الولادة، أدركت أن ابنتها مازالت عالقة تحت تأثير تلك الليلة ومن بعدها عاشت بجسد فارغ من روحها. قالت سوسن لوالدتها بأسى:

- إنه بذرة الشيطان فكيف سأعتني به؟
- لا ذنب له فيما حصل، لا تكوني عليه أنت والدنيا، سنساعد بعضنا في رعايته.
- وكأنّ الرب يعاقبني على ذنبٍ لم أرتكبه.
- أنتِ ضحيّة رجلٍ مريض ومجتمع فاسد، لا ذنب لك مثله فيما حل بكِ، إن يكن في شأن الصغير فما هو إلا ملاك بريء.
- سأسميه مالكاً، أظنّه سيملك قلبي فيما بعد، لكن أخشى أن يسلك سبل الشيطان حين يكبر.
- إن ربيته على الخير والأخلاق الفاضلة فلن يتملّكه الشيطان، وسيكون بذرة خير تعمّ فائدتها.

ظلّت سوسن حزينة أيّاماً حتى نفد حليبها، فاضطرت أن تعمل عملاً مضاعفاً لتشتري الحليب لطفلها، أخفته عن الجميع مرغمة لئلّا ينظروا إلى ملامح وجهه القبيح، لم تسجّله في السجلات المدنية، فهي لا تعرف عن أبيه سوى اسمه واسم مدينته.

مرّت شهور صعبة على سوسن ووالدتها، امتنعت عن الزواج كرمى لصغيرها، مع أن عروض الزواج جميعها كانت مغرية وتليق بها، لكنها رفضتها بشدّة واكتفت بتربية طفلها، كانت تتركه لوالدتها تعتني به وتذهب للعمل، كان لطيفاً، هادئاً، بريئاً، لكنه ليس وسيماً، كل ما فيه يدعو الجميع إلى النفور منه، إذ كان قبيحاً بصورة لا يتصوّرها العقل البشري، لم يجد الحب إلا في قلب والدته، وحدها لم تنظر إلى جماله بل إلى روحه فهو طفلها، وتبعتها صبا وسارة، قلوب النساء عظيمة لا تعرف القسوة إلّا ما ندر، قلوب النساء حنونة كقلوب الأمهات، أعطته من الحنان الكثير ولم تدعه يشعر بالنقص لغياب والده، فكانت له الأم والأب معاً، لم تخرجه من البيت إطلاقاً لئلّا يسمع كلاماً جارحاً يهين قلبه ويكسر خاطره.

.....

مرّ عامان على ولادته، تعلّق بوالدته وجدّته كثيراً، مرضت والدتها، ظلّت طريحة الفراش عاماً كاملاً، مما زاد العبء على سوسن، فكانت تعمل ليل نهار، في الخارج وفي البيت، تعتني بوالدتها المريضة وطفلها الصغير، وفي الليل ترتمي على فراشها البالي تبكي بصمت خشية أن يتسرّب صوتها إلى والدتها، تلعن كل ليلة غسان وما فعله بها، تفكر كثيراً هل عرف أن له ابناً جرّاء تلك الليلة الماجنة، هل كان سيبحث عنها ويتزوّجها ليسجّل ابنه باسمه ويمنحه هويّة؟ أم سيهرب مجدداً؟

منذ تلك الليلة وهي لا تعرف عنه شيئاً، أخبرتها جارتها حين هاتفتها أنه لم يعد إلى مدينتهم منذ ليلته الأخيرة وما زارهم يوماً، حتى أصدقاء القهوة تفرّقوا في الطرقات بعد الرهان الآثم وبعد كلامها معهم، أدركوا خطأهم بعد فوات الأوان، بحثوا عنها ليقدّموا أعذارهم عن استماعهم إلى ذاك الشيطان الذي خرب حياتها وبفضله أصبحت فُتات امرأة تعيش على هامش الحياة، لا ذنب لها إلا أنها أرادت أن تعيش ما بقي لها من عمرٍ في هدوء وراحة رافضة علاقات قذرة لا تمسّ بيئتها.

ضحكت خلال دموعها وقد رأت نفسها ستكون غبية لو فكّرت أنه يبحث عنها محمّلاً بباقات من الاعتذار، فغسان لا يعرف معنى الاعتذار أو لنقل بالمعنى الصحيح لا يعترف بخطئه، ولم يؤنّب نفسه على ما فعل، مازال يعتقد أنّها السبب بتحدّيه لها ورفضها المتكرر، وبفضله ساءت حالتها كثيراً،

جعلها تهرب بعيداً، تعيش مع والدتها وطفلها في غرفة صغيرة على فراشٍ بالٍ.

.....

بعد تلك الحادثة أجبره والده حين عاد إلى موطنه على الزواج، رضخ لمطلبهم دون أن يتذمّر كالعادة، أعجبه أن تكون له زوجة في أرضٍ ينتمي إليها، لكنه سيظلّ عاشقاً للأسفار وفي كل بلدٍ له حكاية تخصّه وسرّ دفين لا يعلمه أحد إلا تلك المدينة، لم يعد يرغب بزيارتها، إذ أدرك أن دخوله إليها يعني أن تُعلّق مشنقته على أعمدة ساحاتها، ضحك بعبث حين تذكّر أن رجالها من ساعدوه لنيل ما طمح إليه، ولا خير في مدينة رجالها تقف في صفّ غربائها ويناصرونه على نسائهم.

.....

مرّ عام آخر وعمر مالك ثلاث سنوات، صار يسألها أسئلة لا إجابات لها، وأولها يريد مرآة يرى فيها نفسه، لمَ الغرفة خالية من المرايا؟ يريد أن يعرف من يشبه، لم لا يخرج من الغرفة؟ من أبوه؟ وأين هو؟ لا إجابات لأسئلته المتكررة، فتصمت ويكرر أسئلته ويزيد صمتها كثيراً، فتحاول إلهاءه باللعب معه لينس أسئلةً إجاباتها ستؤلمه ولن يداويه أحد.

في فجر يوم الجمعة في أكتوبر أعلنت والدتها تخلّيها عن حياتها، بكت كثيراً وضمّت طفلها إلى حضنها كأنها تحمي نفسها من شرور العالم، لجأت إليه قبل أن يلجأ إليها، كأنها تعطيه إشارة واضحة أن لا مكان له في هذا العالم إلا أحضانها لا مكان لها إلا في حضنه، عانقت والدتها العناق الأخير، وقبّلتها من جبينها، كانت تحميها من هذه الدنيا، والآن لم يعد لها من يقف في وجه السيل ويتحدّى الجميع لأجلها، أصبحت وحيدة منفيّة في قرية نائية لم تعترف أنها أصبحت من سكانها.

كانت تشعر بالقوة حين تتنفس والدتها بينهم، حتى وهي مريضة لا تتحدّث إلا نادراً إلا أن صوت زفيرها يقوّيها على هذه الحياة.

أخبرت جيرانها بالأمر، ودعتها بقلب مكلوم والكلّ مشفق عليها، حين حمل الرجال نعشها سمحت لنفسها بالانهيار وأدركت أن أمها قد ماتت فعلاً ولم تعد في هذه الدنيا تناصرها على أشرارها، تبادل الجيران نظرات الاستفهام عن ذاك الصبي الذي يتبعها أينما اتجهت، لقد استمعت إلى تنمّرهم بأذنيها، ودّت لو تطردهم من غرفتها، إنهم لا يحترمون عزاء والدتها وينعتون صغيرها بالمسخ، كأنّه خلق نفسه، كان المصاب جللاً لذلك صمتت ولم تعاقبهم، لكنها نظرت إليهم بازدراء أن احترموا مجلس العزاء الذي أنتم فيه.

انقضت أيام العزاء وكانت ثقيلة على قلبها، حاولت جاهدة أن تعاود الوقوف على قدميها كرمى لصغيرها فلا شأن له بهذه الحياة التي أُجبر على المجيء

إليها، كان عليها التخلّي عن عملها والبحث عن عملٍ بساعات أقل لئلّا تترك وحيدها فترات طويلة في البيت، كانت المهمة شاقة عليها، فالكل يطالبها بما لا تستطيع منحه لهم، وإن كان غسّان قد سلبها إيّاه عنوة فلن تمنحه لغيرها بإرادتها أبداً.

ظلّت تبحث أيّاماً حتى نفدت مؤونة بيتها، عاشت وطفلها أياماً على الخبز الجاف، حتى أخبرتها صديقتها بندم الجميع على ما فعلوه لها، وأن الله عاقبهم أشد عقاب، كل واحدٍ على حدة، بعضهم خسر ماله، وبعضهم الآخر خسر ولده، وواحد حصل لأخته ما حصل لها، أعجبتها عدالة القدر هذه، لكنْ رئيس عصابتهم هل طالته هذه العدالة أيضاً؟

عادت إلى مدينتها ورحّب الجميع بها، لكنهم صدموا لرؤية الصغير وهي تحتضنه، حدّث أحدهم رفيقه قائلاً بهمس:

- يا إلهي كم يشبه الشيطان وكأنّه من صلبه! إنه بذرة محرّمة شيطانية.

أخفته خلفها لئلّا ينتبه إلى نظراتهم المحتقرة المطلّة من أعينهم، لو يعرفونه حقيقة لوجدوا أنفسهم أمام ملاك بريء، لكنهم لم ينظروا إلا لملامح وجهه القاسية.

عادت إلى بيتها بعد غياب أعوام وكأنها ما غادرته، تذكّرت تفاصيل تلك الليلة المشؤومة، وخروجها من هذا البيت مطأطأة الرأس محمّلة بعارٍ لا إثم لها فيه، استندت إلى الجدار وانسكبت عبراتها، خبّأت وجهها في يديها، وصرخت ألماً وظلماً وعذاباً وقهراً، كان ينظر إليها ببراءة، حين رأى انهيارها أدرك أنها بحاجة إلى حضن تستريح فيه، ضمّها الصغير إليه، مسح عبراتها، هكذا عوّدته في كل مرّة تلمح دموعه، أخبرها أنه لن يتركها وسيحميها من كل شخص تسبب بهذا البكاء، أنستها كلماته ذكرياتها وهمومها وسرّت برجلها، عانقته عناقاً قويّاً، شعرت أنها لن تكون وحيدة بعد الآن، ستواجه عالمها وسيكون خلف ظهرها، وستقوّي نفسها به.

لكنّ القدر كان له رأي آخر، لم ترحمها سهامه ومازالت تصوّب نحوها هموماً أشقتها وآلمتها، فبعد عامٍ ونصف مرضت وبدأت تظهر عليها علامات النهاية، يجب أن تطمئن على مالك، لن تتركه بين أيادي هذه المدينة الجاحدة، آن الأوان ليعرف والده، استدعت صديقتها وطلبت منها أن تأتيها بعنوان غسّان، سألتها:

- ولم تذكرته الآن بعد مضي خمسة أعوام؟
- أشعر أن نهايتي قد اقتربت ومن واجبي أن أرد الأمانة إلى أهلها.
- من المحال أن يعترف به.
- لن أترك له فرصة الرفض، ولن أمنحه الخيارات.

لبّت صديقتها طلبها، وظلّت أياماً تسأل عنه أصدقاء المقهى، أما سوسن فعانقت صغيرها وانسكبت دموعها شلالاً، لم تشبع منه بعد، ولم يكبر ليأخذ حقّها من الدنيا، مازال صغيراً على مواجهة هذا العالم البشع، إنه ملاك لا قدرة له على العيش في جحيم الشياطين، العالم سيدوسه دون رحمة، ندمت الآن لأنها لم تتزوج ولم تجلب له سنداً في هذه الحياة القاسية.

بعد أسبوع جاءتها صديقتها ومعها ورقة فيها عنوانه، أومأت بضعف، سحبت الورقة منها وقرأتها كثيراً حتى حفظت ما فيها.

لم تستطع اتخاذ قرار السفر، هذا القرار صعب وجائر في حقّها، هل سيصدّقها؟ أم يكذّبها؟ وما مصير صغيرها؟ الموت كان رحيماً معها، إذ تركها ترثي نفسها شهوراً جانبَ طفلها. مع أن المرض لم يتركها.

ها قد أتمّ ابنها السادسة من عمره، قبّلته وعانقته وبكت لفراقه، كان حال قلبها كحال شخص يسحب الشوك من القطن، شعرت أن النهاية وشيكة والموت يستأذنها أن تقدّم ما لديها للدنيا ليأخذها.

سافرت وطفلها إلى تلك المدينة البعيدة، ركبت القطار الذي يوصلها إليه، هذه هي المرّة الثانية التي يغادر البيت، كان مبتهجاً، يتأمّل السيّارات من خلف زجاج القطار وكأنها من كوكبٍ آخر، وكل حين ينظر إلى والدته يسألها عن أسماء السيارات والأشجار وحتى الأشخاص، لم تتوقف دموعها

عن الانهمار، طوال الرحلة كانت تعانق صغيرها، كيف ستقضي بقية حياتها دونه ودون أن تشمّ رائحته، لن تعانقه بعد الآن ولن يحتضنها إن انهمرت دموعها، تدرك أنه لن يحبّه أحد ولن يرحمه، هذه الدنيا لا تليق به، تخشى أن تدوسه الأقدام بينما هو يتعلّم السير.

وصلت إلى حارته، سألت دكان البقالة عنه، أشار إلى الباب الأسود، ثاني باب على اليمين، دقّ قلبها بعنف، تدفق الأدرينالين لا شعورياً، مشت إلى الباب وكأنها تمشي على زجاج حافية القدمين، خلف هذا الباب من كان مصدر عذابها أعواماً، أمسكت بيد وليدها بقوّة كأنّها تستمدّ منه القوّة أو ربما تشبع منه قبل أن تسلّمه إياه.

وصلت إلى الباب، ركعت على ركبتيها أمام الصغير حتى أصبح وجهها يقابل وجهه، قالت له:

– أنت ملاك يا مالك، لا تدع أحدهم يشوّه جمال روحك.

طرقت الباب وكانت اللحظات الفاصلة بين الطرقات وفتح الباب قاتلة لها، وكأنّما مرّ عام مليء بالأحداث ومازالت تنتظر، خُيّل إليها أن تهرب أو تبكي، أو تعود إلى ديارها، تمنت لو تفقد الوعي قبل أن يفتح الباب وتطلّ منه طفلة صغيرة جميلة، بضفيرتين بنيتين، سألتها سوسن بحروف متلعثمة عن غسّان، لم تلقِ التحيّة عليها إذ بلغ منها التوتر مبلغه، أومأت برأسها

الصغير وذهبت لتنادي زوج والدتها، تجمّع الصغار عند الباب، ينظرون بفضولٍ نحو تلك المرأة الغريبة عنهم وذاك الصبي المختبئ خلفها، أفاقت من شرودها على وجه غسان أمامها، يتأمل الماضي الذي عاد إليه ليجلده على قسوته، فغر فاه مندهشاً، لم يتوقع أن هذا اللقاء سيأتي يوماً دون موعد مسبق، إذ ظنّ أن الماضي رحل بكل ما فيه، لكن جاءته لتعيد إليه الماضي، وتكمل هذا الكابوس في حاضره، قدّمت له الصغير، وقالت بألم وبصوتٍ حاولت جعله هادئاً، لكنّه خرج متقطّعاً لارتباكها:

- إنه ابنك _مالك_

نظر إلى الصبي الصغير، يا إلهي أهذا المسخ ابنه! أما هي فلم تقدر على عناق صغيرها، وفرّت هاربة كي لا تضعف، ركضت في الأزقّة الضيّقة، وكأنها تركت قلبها هناك، تعلم أن الجميع لن يرحمه وسيُعامَل بقسوة، لكنها لا تملك حلّاً إلا هذا.

عادت خالية الوفاض، تعدّ الأيّام الباقية من عمرها، زادت آلامها بفقدان نجلها الوحيد، فكانت النهاية قريبة جداً، لم تدعُ لخالقها أن يخفف عنها احتضارها، بل كان جل دعواتها لصغيرها أن يرزقه من القلوب أحنّها، وكانت هذه آخر ابتهالاتها إلى خالقها.

عودة إلى الحاضر

الخامسة صباحاً وبرد ديسمبر ينخر العظام، ومع ذلك أعدّ لنفسه فنجان قهوة، وجلس في الشرفة يتأمّل الطائرات الحربية وهي تفرغ حمولتها فوق أحياء المدينة، جميع دورها تهيّأت لإقامة مجالس العزاء، هيّج أحزانه ذاك الدخان المتصاعد من حاراتها العتيقة.

لم ينس ذاك الاتصال الذي أتاه قبل شهر من الآن فألجم لسانه حين أخبره بما لم يعلمه، أن والدته ماتت بعد ثلاثة أيام من وداعه، وهو الذي ظلّ قرابة العشرين عاماً يتألّم معتقداً أنها تخلّت عنه، صعق بهذا الخبر بعدما أُكِّد له إنها كانت معلولة وأرادت له الاستقرار، لم تعرف أنه مذ تركت يده لم يعرف معنى للاستقرار.

أيقظ هدير الطائرات الموحش سارة من نومها، لم تجده جانبها، اتجهت إلى الشرفة فقد اعتادت على رؤيته كل صباح يتأمّل المدينة وظلامها.

وضعت يدها على كتفه، ألقت عليه تحيّة الصباح، إنها تحبّه لكنها تحبّ السلام لوطنها، ونسيت أن هذا الوطن لم يعد يعرف إلا الحرب وإقامة مراسم العزاء، سألته وعلى شفتيها بسمة أمل:

- هل ستشرق المدينة مرّة أخرى بعد انتهاء الحرب دون أن يطالها الغروب.
- المدينة التي يطالها الخراب يبقى جزءاً منها محطّماً للأبد، المدينة التي يسحقها الخريف لن تزهر في أيّام الربيع، سيعود الناس إلى حياة سكنتهم، لكن من ذاق الحرب لن يعود، لأنها أذاقته خسارات متتالية.
- إذن أوقف الحرب.

نظر إليها وتعمّق في سكون عينيها، ثم قال:

- لا أقدر على تلبية طلبك هذا، لم يعد بمقدوري العودة إلى الوراء، أخشى أن تتلبّسني شخصية مالك القديمة (صاحب الوجه القبيح والثياب البالية، القلب الملائكي والوجه الشيطاني) عقارب الساعة لا تعود إلى الخلف يا سارة.
- حين توقف الحرب لا يعني أنك سترجع إلى ما كنت عليه، ستبقى شخصاً ذا قيمة، والكل يهابك ويحترمك، ألا يكفي هذا الصخب؟
- لا يكفي يا سارة، أنسيتِ أنّ ضحايا الحرب الأولى كانت عائلتك؟
- ومن أخبرك أني نسيت أمرهم؟ لكن تناسيتُ لأعيش، لم أنسَ ضجيج بيتنا تلك الليلة، ارتعاش النبض، ارتجاف الأيدي، نظرة الشتات، ألم الفقد، رحل كل ذلك دون وداعي، كانوا في انتظاري

فتأخّرتُ عنهم قليلاً، لم يلوّح لي أحدهم، انتظروا مجيئي لتناول الفطور معاً، فطال الانتظار ولم يصبروا، وبعدها غدوتُ بعدهم انتظر انتهاء حياتي لألقاهم.

ارتشف من فنجان قهوته، ثم قفل عائداً إلى الداخل، وقبل أن يدخل عاد واستدار إليها قائلاً:

- بكيتُ على نفسي كثيراً وعلى ما فعلته المدينة بي، لكنني الآن تجرّدت من هذا القلب كي لا أضعف، أصبحتُ إنساناً لن تعرفي بما يفكّر.

اقترب منها وأحاط وجهها بكفيه وقال بصوتٍ هادئ:

- حين أرى هذه المدينة يقتلني شعور الألم، ولا يوجد أقسى ألماً من هذا الشعور، عام كامل يمرّ على إنسان فتتبدّل شخصيته وأفكاره، ويشعر أنه غدا أكبر من عمره بكثير، فما بالك بأكثر من خمسة وعشرين عاماً قضيتها في ذلٍ وحرمان؟

قبّلها من جبينها وهمس في أذنها:

- ابتعدي عن مرمى النيران، لن أؤذيك، ولن أدع الحرب تطالك أنتِ وصبا، حتى عمر سأبعدها عنه قدر المستطاع.

نظرت إليه مندهشة من تبدّل حاله، أول مرة يذكر عمر ويضعه في نفس خانة صبا، هل حقاً أدرك أن عمر له الحق فيها أكثر منه، معنى هذا أنها لن تقرب حياتهما وستبقى بعيدة عنهما، أدرك ما يجول في خاطرها حين رأى نظراتها المصوّبة إليه، فقال لها:

- لا تنظري إلي هكذا، علي دينٌ كبير لعمر ويجب قضاؤه، لا أنسى من وقف جواري ولو ساعة واحدة، عمر لم يتخلَّ عنّي، إلا تلك الليلة كان الجميع في صف واحد وكنتُ في صفٍّ وحدي، وقتها قرروا تخلّيهم عنّي.
- ألا يمكن أن يكون قد حصل أمر طارئ أخّرهما عنك، كما حصل مع والدتك، التمس الأعذار لهما ريثما تلقاهما وتعاتبهما.

نظر إليها مطوّلاً، فتح فمه ليتكلّم، لكنه وجد صعوبة في البوح أكثر من ذلك فتركها تلملم شتات أفكارها التي بعثرها بغموضه.

نزل إلى القبو حيث أراد أن يكمل اللعبة لصالحه، بينما ضاجت الأفكار في رأسها وهي تشاهد الحفلة الملحمية التي تدكّ حصون المدينة، هذا الثبات الذي تدّعيه الآن كان باهظ الثمن وكلّفها عمراً من الأوجاع، لطالما كانت وحيدة حين انهار البيت على آمالها وأحلامها، حينها لم تنسكب دمعتها وفرّت إلى الشوارع المليئة بالهاربين من ضجيج الحرب والباحثين عن الأمان، لكن هيهات أن تجد الأمان في مدينة تحترق بنيران الحرب الهوجاء.

بعد أيام أدركت ما خسرت لكنهم لم يتركوا لها كتفاً تستند إليه وتندب أوجاعها، لم يتركوا لها مكاناً صغيراً تأخذ فيه عزاء عائلتها، احتضنها الشارع قليلاً وسرعان ما بدأت رياضة السباق الصباحية مع القذائف، وهي تعدو من شارعٍ لآخر والقذائف تلاحق ظلّها لتقضي على روح الحياة فيها، طالها الخراب وما أحسّت بنشوة الانتقام، بل سلّمت أمرها لخالقها واستسلمت لطوفان الحرب ودعت الله كثيراً ألا تعود لأيّام صلّت من أجل أن تنطوي، ومع ذلك لا تريد لمدينتها الخراب، تتمنى أن تكون لها القدرة لتوقف مالكاً، ماذا زرع هذا الوطن ليحصد كلّ هذا الدمار؟ أين يذهب أهله وقد ضاقت بهم الأرض، والمدن الأخرى أقفلت أبوابها في وجوههم خشية أن يطالها الخراب كذلك.

قبل أربع وعشرين عاماً

سبعة أعوام مرّت على ذاك اليوم وها هو يُعاد بطريقة بشعة، أيعقل أنّ هذا المسخ ابنه؟ لقد كان شيطاناً معها وعاقبه الله ببذرة قبيحة، هروبها منه قبل أن تفصح عن سبب قدومها يؤكّد لها أنها تكرهه كثيراً وتخشى مواجهة الماضي ولا تريد مجرّد النظر في وجهه.

الكل مصدومون من هذا الخبر، فغر فم زوجته وانسكبت دمعتها، متى تزوّج وأنجب؟ صمته يؤكّد لها أنه قد فعلها قبل أن تلتقيه لأن الصغير أكبر من ابنيها بعامين، والداه وأخواه وزوجته والصغار يطالبونه بتسويغ ما يحصل أمام أعينهم، لكنه عاجز عن تسويغ ما حصل قبل سبعة أعوام، آلمه قلبه لما حلّ به، غروره فاق حجمه فلم يتصوّر أن هذا من صلبه، نظر إليه الصبي ببراءة ولطف، كان هادئاً حزيناً وفي عينيه تجمّعت العبرات، علم بفطرته الطفولية أن والدته قد رحلت ولن يلمح طيفها بعد الآن، عرف بذلك بعد أن تركت يده دون وداع وتركته يواجه عالماً قاسياً أكبر من حجمه بكثير، أخطأت سوسن حين لم تهيّئه لهذه المواجهة ولم تخبره عن أسبابها، تركته يواجه قدره بمفرده، ظلّت طوال الطريق صامتة بعبرات غسلت وجنتيها، خافت أن تحكي له فيتسرّب الخوف إلى أعماقه ويتمسّك بها رافضاً البقاء، ابتاعت له في الطريق كل ما رغب به، لم تبخل عليه أبداً، أنفقت ببذخ لأنها المرّة الأخيرة التي سيطلب منها ولن يطلب بعد اليوم من أحد.

ترك غسان الصغير واقفاً أمام الباب ودخل البيت، دخل الصغير خلفه يتأمّل فناء البيت الواسع، أعجبته الأرجوحة المربوطة بشجرة التين، نظر إلى البحيرة واقترب يلعب بمائها وكأنّ أمر الجميع لا يعنيه، أما غسان فما إن مشى بضع خطوات قصيرة حتى وضع يده على صدره وصرخ وكأنه شاة تصارع الذبح، خرّ صريعاً، هرول الجميع إليه ينادونه باسمه، حمله أخواه وأسرعا إلى المركز الصحي في الحي، تفرّق الصغار إلى أماكن لهوهم، ولحق والداه وزوجته رندة بهم.

اقتربت منه الطفلة التي فتحت الباب، كانت جميلة ورقيقة، تكبره بستة أعوام، سألته عن اسمه، كان أول لقاء له مع صبا، نظر إلى عينيها الدافئتين وابتسامتها الحنونة كقلب والدته، أجابها باسمه وظلّ صامتاً يلعب بماء البحيرة، استند عمر بجذعه إلى شجرة التين، كان يكبره بعشرة أعوام، وهو ابن عمه أشرف، أما صبا فهي الغريبة هنا، لأنها ابنة رندة وليست قريبته، ظلّت صبا تتحدّث معه بلطف لئلّا يستوحش المكان ويشعر بألمٍ لفراق والدته، سألته عن والدته ومدينته وأهلها وحتى درجات الحرارة والطيور لم تسلم من أسئلتها، كانت أغلب إجاباته يلفّها الصمت لأنه ببساطة لم يخرج يوماً من غرفة والدته، نظرت إليه الطفلة ولاء قليلاً ثمّ هربت واختبأت خلف مجد ويزن أخويه التوأمين، نظرات الأطفال ترعبه كثيراً، صاح مجد أن هذا الطفل يشبه

الشيطان وضحك من كلامه يزن، بينما ظلّت ولاء خلفهما خائفة منه. صاح عمر فأسكتهما.

في تلك الليلة لم يعد غسان كما خرج، وإنما عاد محمولاً على الأكتاف، إذ سبّب وجود طفل له بهذا الشكل ذبحة قلبية قضت عليه، أقيم العزاء وكانت الولاويل تخرج من البيت فيتردد صداها في الحي كله، بكت النساء فقيدهن وصرخت رندة وأغمي عليها مرّات عدّة، والأطفال يلعبون في باحة الدار دون أن يعرفوا سبباً لكل هذا البكاء، حين سأل التوأمان عن والدهما أجابتهما صبا بأنه سافر إلى البعيد ولن يعود قريباً.

لعنت رندة تلك المرأة وطفلها، تذكّرته الآن فنادت على طفلتها وسألتها عنه، أجابتها الأخيرة بطيبة قلب أنه يأكل معهم، انتفضت صارخة آمرة أن هذا الصغير لن يمكث في هذا البيت دقيقة واحدة، أيّدها الجميع ولم يعترض أحد، حتى والداه صمتا ولم يتكلّما في الأمر.

اعتقدوا أن هذا الصغير من المحال أن يكون ابنه وتلك المرأة كاذبة، وحين أمرت رندة ابنتها أن تطرده من الدار خرجت إلى الفناء تبكي قسوة والدتها على صبي يتيم ليس له معيل، جلست على حافة البحيرة تقضم أظافرها وتبكي قسوة الجميع، لمَ أيدها الجميع ولم يعترض أحدهم؟ لن ترمي طفلاً في السادسة من عمره في الشارع، لو كان قطة لما ارتضت لها الهوان فكيف بصبي من لحمهم ودمهم، جلس بجوارها عمر ومسح دموعها المنسكبة على

وجنتيها، بعد تفكير عميق هداه عقله إلى فكرة جهنّمية لن تخطر على بال أحد، سينفّذها وصبا مستغلاً انشغال العائلة في عزائها، أخبرها بما نوى، سَعِدت لذلك وعانقته بمرح، سيحارب لأجلها وسيكون معها في خطوة تخطوها لحماية الصغير.

نزل وإياها إلى القبو ومعهما مالك، وبدؤوا حملة تنظيف واسعة، استمرت النهار كله، كانت مليئة بالغبار والأتربة، جميع من في البيت يخشى هذه الغرفة لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بالأشباح، فلا أحد لديه الشجاعة للنزول إلى الأسفل، كثير من الإشاعات كانت تطلق على هذا القبو، فأغلقه الجد مانعاً أن ينزل أحد إليه، استطاع عمر سرقة المفاتيح من غرفة الجد وفتح باب القبو، وكان في زاوية الدار خلف الفناء الواسع، له نافذة علوية صغيرة في الأعلى تطلّ على ساحة الدار الواسعة، جلست صبا على ركبتيها أمام مالك بعد أن انتهوا من حملة تنظيفها، أخبرته أن هذه الغرفة ملكه، وستجلب له ما يشاء من الطعام، ولكن بشرط ألا يصدر صوتاً لئلّا يُرمى خارج الدار، أذعن لشرطها ووافق على ما تريده خشية أن يُطرد في الشارع ولا يجد مكانا يأويه، كان في هذا القبو ملحق فيه حمام، نُظِّفَ جيّداً من قبل عمر، شكرها بعينيه وعانقها دليل محبّة، لم يكلّمها إذ كان كثير الصمت، قليل الكلام، قبّلته على رأسه وغادرت مع عمر بعد أن أحكمت إغلاق الباب.

هذه الليلة كانت من أصعب الليالي التي مرّت عليه، مازالت ذكرياتها تحتلّ جزءاً كبيراً في ذاكرته، ذاك الظلام الذي أحاطه مازال يداهمه في كوابيسه أغلب لياليه، لقد حاول إغماض عينيه كي يهرب من وجوه البشر المخيفة التي تحدّق فيه باستمرار، لم يصرخ، كان خائفاً من الصراخ لئلّا يُطرد خارجاً، الصراخ يعدّ رفاهية لأمثاله، أوامر صبا قاسية لكنها لصالحه، فهم ما حصل الآن ولم يستطع فهم تخلّي والدته عنه.

بكى كثيراً في ليلته الأولى، لكن بكاءه لم يصل إلى أذنه، إلى الآن لم يستطع وصف العاصفة التي كانت بداخله وحطّمته إلى أشلاء كل جزء فيها يرثي الآخر، لم يجد حضناً آمناً يحميه من قسوة الأيام، كان يخشى أن يُنسى هنا ويتحوّل مع الأيام إلى ركام، فقد ثقته بالجميع، انهار من البكاء ولم يدخل أحد ويلملم جرحه، خارت قواه ولم يربت على كتفه إنسان، تعاضد الكل في محنتهم والتفّ جميع أهل المدينة حولهم، إلا هو ركنوه على رفٍّ عتيق غارق بالغبار، وحيداً وسط أهله، في قلب حارته، وسط مدينته.

وكطفلٍ صغير لم يعرف أين يقع الخلل فقد أعتقد أنه السبب في كلّ شيء، كان يضع اللوم على نفسه في كلِ أمرٍ تحلّ به خسارة، ودائماً هناك حرب قائمة بينه وبين نفسه، وبرغم أنه يستحق المواساة إلا أنه يرى نفسه السبب في كل علّة لم يواسه أحد عليها.

عودة إلى الوقت الحاضر

نزل إلى القبو، مشى في ممرٍ طويل حتى وصل إلى نهايته، فتح الباب بالمفتاح ودخل دون أن يغلقه خلفه، تقدّم إلى الأمام واقترب من ذاك مكبّل القدمين، لم يُعره ذاك أي اهتمام، ظلا صامتين فترةً من الوقت، كل منهما يفكّر في أمر قد حيّره، أحدهما عالقٌ في الماضي والثاني في المستقبل، قطع لحظةَ السكون مالكٌ حين سأله:

- لم لا تصرخ؟ لم لا تنتفض؟

نظر إليه وتأمّله، ثم قال بهدوء:

- الصراخ للجبناء، أنا لستُ منهم يا مالك.
- أنتَ قذر أيّها الطبيب، أنت مثالٌ حيّ للجبن.

ابتسم بتهكّم ثم قال:

- من دوني لم تكن لتكبر، أنا من عظّمتك وجمّلتك، فلا تنكر أنك من صنعي ولا تنكر أصلك.

أمسكه من كتفيه وهزّه بعنف، ثمّ قال:

- أنتَ من بدأت هذه اللعبة، لكن القواعد لم تكن لصالحك، فقد خنتَ مهنتك حين جعلتني جزءاً من حكايتك القذرة، لن أرحمك وستموت هنا يا جمال، ولن يعرف مكانك أحدٌ، فالقتل رحيماً لأمثالك.

ردّ عليه بمنتهى الهدوء:

- أعد إليّ ما سلبته مني وبعدها أفعل ما تشاء، أعد إلي وجهك الوسيم الذي صنعته من أجلك وخلّصتك من عقدة الشيطان، لم أكن على علم بأن بذرة الشيطان حين تكبر لن تزهر ملاكاً بل شيطاناً آثماً.
- لن أقتلك مهما قلت، لن أفعل ذلك.
- أزاد جنونك وأنت تستمتع إلى الحقيقة التي تخشاها ولم يخبرك بها أحد؟

نظر إليه وتركه، هرب إلى الخارج وأغلق الباب خلفه بالمفتاح، صعد إلى الأعلى، لا أحد يواجهه بحقيقته التي طالما هرب منها إلا جمال، هو الوحيد الذي يعرف نقطة ضعفه ويرتكز عليها لإيلامه. اقتربت منه سارة وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة، سألته:

- أين كنت؟

لم يردّ عليها وارتمى على الأريكة يشاهد الأخبار على شاشة التلفاز، جلست جواره، أمسكت يده ووضعتها على بطنها وابتسمت، نظر إليها ببلاهة، فقالت له:

- هنا يمكث طفلك، ستكون أباً بعد أشهرٍ عديدة.

فغر فاه، لم يخطر على باله أن يكون له طفلاً هو والده، جميع الآباء يفرحون في موقفٍ كهذا، لكنه لم يستجب لكلامها وكأنه في وادٍ آخر، نادته مرّات عدّة حتى استجاب لها، نظر إليها بوجهٍ غامضٍ إذ عجزت عن تفسير نظراته، ثم قال بهدوء:

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟ أأفرح؟ أم أحزن؟ سيكون مسخاً يا سارة، سيكون بذرة أخرى لشيطان أكبر.
- وما أدراك أنت؟ ثمّ نحن لن نفعل به ما فعله أبواك.

جملتها كانت رقيقة لكنها جارحة، أدمت قلبه وأحزنته، نعم لن يكون كوالديه، سيحتضنه ويقبّله، إنه وليده الصغير، تركها لأحلامها طالباً منها ألا تلحقه، وقف في الشرفة وشرع في تدخين لفافة التبغ، تأمّل سكون المدينة، وسحبها لتسكب مطرها على جدرانها الآيلة للسقوط فتطفئ حرائقها، لكن لهيب القلب من يطفئه، تذكّر كلمات صبا حين قالت له ذات ليلة صيفية "لا كائن مؤذياً في هذه الدنيا أكثر من الإنسان" حينها كان صغيراً ولم يفهم كلماتها لأنه لم

يتعرّض للأذى الكبير، كان يعتقد أنهم يقدّمون له أسمى ما لديهم وأنه مدين لهم بما منحوه، لكنه اكتشف مع السنين أن ما قُدِّمَ له ما هو إلا الفتات من مشاعرهم وطعامهم وملبسهم، لم يُعلَّم كما يجب ولم يُسجّل في الأحوال المدنية، مازال إلى الآن رغم تخطّيه الثلاثين دون اسم في سجلّات الدولة، لذلك منح له الحق في أن يحرق المدينة كيفما شاء، اقتربت سارة منه، احتضنته وقالت:

- أنا أعتذر.
- أخبرتك قبلاً أن اتركيني وشأني.
- لا أرغب برؤيتك حزيناً.
- ومتى رأيتني والفرح يسكنني؟
- لو تزيل فكرة الانتقام من رأسك فحسب وتدع الدنيا تأخذ لك حقّك.
- هذا كلام البائسين أمثالكِ، الباحثين في دروب الوطن عن مقعد يستريحون عليه.
- ولكن في العفو لذّة لا نجدها في الانتقام.
- من لا يدفع ثمن الشجاعة فعليه أن يدفع كل عام ثمن البقاء في مكانه، الألم لم يعلّمك شيئاً سوى الاختباء في جحرك كالفأر.
- كبرتُ بهذا الألم دون أن يعلّمني أحدهم كيف أتخطّاه، وكبرتُ أكثر حين واجهته، لم أتخيّل أن أتجاوز يوماً مجزرة استشهاد عائلتي.

ابتعدت عنه، ثمّ وقفت بجواره واستندت بمرفقيها على سور الشرفة الحديدي، وأردفت بنبرة منكسرة:

- قد ترى التسامح انكساراً، والصمت هزيمة، لكن ما لا تعرفه أن التسامح يحتاج قوة أكبر من الانتقام.
- هذا كلام الضعفاء، أنتِ لن تقدري على العيش في هذه المدينة، ستظلّ توقعك في مشكلات لم تتوقعيها، إن انتهت الحرب لصالحهم ستنهار أمنياتك ويجرّدونك من حقّك في الانتماء لمدينتك، هذا النقاء بداخلك لن يتوافق مع التلوّث الذي تعجّ به عقول البشر، أنتِ ملاك يا سارة ولن تصلحي لهذه الحرب.
- لا يمكننا أن نصبح ملائكة، نحن بشر في النهاية، لكن يمكننا التمسّك بآدميتنا.

نظر إليها وتأمّل سحابة الحزن في عينيها، ثم قال قبل مغادرته:

- الملاك لا يمكنه تغيير الشيطان.

تركها خلفه ودخل القصر، فقالت بهمس لم يصله:

- لكنه يستطيع تعليمه الحب.

قبل ثلاثة وعشرين عاماً

لا يستطيع وصف الألم الذي شعر به هذا العام، كل شهر يمرّ عليه كان يقوّيه ويصقله، احتمل الألم مرغماً فهو لا يملك رفاهية الخيارات، بكى وحده، وحضن نفسه، ربت على كتفه بيده الأخرى وواسى نفسه كثيراً، لم تخبره والدته أن الحياة ستكون قاسية هنا ولم تستطع صبا تعليمه كيف يعيشها، هذه التجربة كانت قاسية ولازمته سنوات حتى حفرت أخدوداً في روحه خبّأ فيه أوجاعه التي قضاها في هذا السرداب المظلم، سكن الخوف أضلعه ولم يجد الأمان، وكان يشعر به فقط حين تنزل صبا إليه فتستكين روحه ويشعر أنه في أكثر الأماكن أماناً.

كانت تنزل إليه مرّة في الصباح ومرّة في الظهيرة حين تعود من مدرستها، أما عمر فكان يزوره ليلاً ويجلس وإياه يتحدّثان، وبعدها يتركه لظلام غرفته ليؤنسه، لم يعرف أحد ما يحصل في الأسفل، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب من درج القبو، الكل مشغول في هذا المنزل في ذاته ولا طاقة لهم بالتفكير بأشياء أخرى، كان يستمع إلى صخب الأطفال وهم يلعبون في الأرجوحة ويدورون حول شجرة التين، وأحياناً يتسابقون في باحة الدار ويتراشقون من ماء البحيرة، يختبئون عند الدرج فيصل إلى سمعه ضجيجهم، يقترب من الباب يتمنى لو ينزل أحدهم إليه فيكلّمه ويلاعبه، لكنّ وقوفه يطول في عتبة

الغرفة وينتهي النهار لصالحهم، بينما يبقى هو قيد الانتظار أمام الباب ينتظر طفلاً في مثل سنّه يلعب معه.

مجد يحبّ أن يلعب لعبة الشيطان، فيذكّرهم صوته العالي بذاك الصبي الصغير القبيح، يبدأ بإخافتهم ويركض خلفهم وهم مذعورون منه، يضحك وهو يزمجر عالياً، أما مالك فكان يبتسم لضحكهم وكأنه يشاركهم اللعب، أعجب بما يلعبون وتمنى لو يدعوه أحدهم إلى ساحة اللعب، لكن في النهاية تمرّ الساعات ويظلّ كقصّة مركونة في غرفة رجل أميّ لا يفقه القراءة، كقارورة عطر منسيّة في غرفة رجل مصابٌ بزكام دائم، كبيانو عتيق في غرفة فتاة صمّاء ولوحة فنيّة رسمها رسام ماهر وأهداها لفتاته العمياء.

لم يره أحد أو يعرف عنه، كان جميعهم يعيشون في الحياة بينما هو على هامشها، يعيش في كواليسها وهم أبطالها، إن شبعوا أكل، وإن استيقظوا استيقظ مرغماً بسبب صخبهم، وإن ضحكوا ضحك في الخفاء، وإن لعبوا ابتسم لسعادتهم، وكانت هذه السعادة تعبر جواره دون أن يلتقطها، لم يجرّب إلى الآن ما يجرّبونه من متع في هذه الدنيا. قالت له صبا:

- الحياة فرصة وعليك استغلالها، وإن لم تستطع اسرقها، اسرق لحظاتك الممتعة من الحياة، لا تدعها تضنّ عليك بالقليل، السعادة من حقّك ولن يمنحها أحد لك.

كانت تعلّمه القراءة والكتاب والحساب، تقرأ له دروسها وتخبره عن صديقاتها في المدرسة، وعن عمر، كانت دائماً تتحدّث وإياه عن صديق طفولتها عمر.

جلست جواره وحدّثته عن ألمها في هذا البيت، أخبرته عن وحدتها، لا صديق لها إلا هو وعمر، هي ابنة كنتهم ولن تكون ابنتهم يوماً، أكثرت من حديثها عن أخويه التوأم وعن ابنة عمه الصغيرة ولاء.

تحدّثه وهو صامت يستمع إليها، ولكن حين تنهمر دموعها يسارع لاحتضانها كما كان يفعل مع والدته، شعرت أنه سندها لذلك دائماً ما كانت تضع رأسها على قدميه وتشكي وصبها، وكان يمسح عن شعرها ويستمع إلى هذيانها، تنهدت وقالت ذات صباح:

– ليس هناك ما هو أشدّ من الحزن إلا شرحه.

اختنقت بعبراتها، كانت جملتها صائبة عنده، نعم أشد من الحزن أن يشرح ما فعلته تلك الليلة حين ذبحته ولن ينساها، رمته في هذا القبو المظلم وتركته في ظلمة الليل يقتات الأسى، لقد كبر عمراً فوق عمره من شدّة ما كان أذاها عميقاً، مازال يشعر أن يده في حاجة إلى يد تمسك بها، فمنذ أن أفلتت والدته يده وهو ضعيف والأمواج تتلاطم حوله، فخيبات الأقربين لا تنسى، أدركت صبا ما يدور بخلده فعانقته وقالت ببسمة مرحة:

- أنت قويّ لأنك لم تذرف الدمع ولم تصرخ تلك الليلة. أنت بطل يا طفلي الصغير.

لم تعرف أن البكاء رفاهية لأمثاله، وأنه كل ليلة كان يبتر جزءاً من روحه، لم تنتبه لظلامه لأنه يحاوطها بالنور، ولم تنتبه لغرقه لأنه دائماً يظهر بمظهر الناجي، يرهقه أنه مليء بما لا يستطيع إخبارها به، فهو مازال طفلاً صغيراً لا يعرف كيف يشرح أحزانه فيكتفي بعبرات تسيل على خدّيه دون أن يشرح لها الأمر فالأشدّ من الحزن شرحه، كان كل شيء في المدينة هادئاً إلا قلبه.

عادت إليه بعد أيام وعانقته، لقد رزق عمّه أشرف بطفلة صغيرة، أسماها عمر آسيا، وهو سعيد لأنه رزق بأخت جميلة، لن يعود وحيداً بعد الآن، ابتسم لها وعانقها بسعادة، أخبرته عن شعورها الرقيق حين حملت الطفلة بين يديها، ستكون أمّاً صغيرة لها وستعتني بأمورها، إنها الآن في الثالثة عشر من عمرها وبإمكانها رعاية الصغار، حدّثته بحماسة حتى انتقلت هذه الحماسة إليه وتمنّى لو شاهد الصغيرة وحملها بين يديه، وحين حلّ المساء نزل إليه عمر، فبدأ يسأله عن أخته أسئلة كثيرة، ابتسم عمر لهذا الصغير وأجابه عن جميع أسئلته البريئة، كان يحنّ عليه من أجل صبا، لا يريد لها الحزن والألم، فاجئه مالك حين قال:

- حين أكبر سأتزوّجها.
- أختي آسيا؟

- لا، هذه مازالت صغيرة، تزوّجها أنت، أريد الزواج من صبا.

احمرّ وجه عمر غضباً ووبّخه قائلاً:

- لا يجوز للأخ أن يتزوّج أخته، وابتعد بأفكارك الصغيرة عن صبا، إنها تخصّني وحدي. وإن اقتربت منها كثيراً فسأمنعها من زيارتك، ستعود وحيداً يا صغيري ولن يكون لك معيل.

تركه بعذابه وصعد إلى الأعلى، أكثر ما يخشاه أن ينفّذ عمر تهديداته، كان دائماً إذا أخطأ مالك في أمر هدده بإبعاد صبا عنه.

كان يظن كطفل صغير أن صبا ستلازمه طوال العمر، لكن عمر أدار وجهه إلى الحقيقة المرّة أن صبا كوالدته ستفلت يده يوماً ما، انزوى في الزاوية، قضم أظافره العشرة حتى أدماها، بلّل سرواله، وانتحب بصمت، فصبا دائماً ما تخبره أن دموع الرجال غالية ولا يجب أن تنهمر دوماً، لكنها تؤلم يا صبا وتحرق الروح وتدمّر الشرايين.

جاءته في اليوم التالي، سألته عن السبب الذي دفعه إلى أن يبلّل سرواله، عرفت مالكاً جيداً وعرفت أنه كلما ساءت حالته النفسية بلّل سرواله، كلّما تألم ظهر الألم في وجهه، عانقته وكأنها تحاول أن تخفيه عن هذا العالم البشع، فهو ينتمي إليها وكأنه شيء من أعماقها، كأنها شيء عظيم مرتبط

بقلبه. لم يعرف كيف يشرح لها ما شعر به حينها، ارتمى في حضنها فحسب، وبكلمتين فهمت وجعه:

- لا تتركيني، إياكِ أن ترحلي عني.

كلمتان مؤلمتان جعلتاها تصمت ولا تعرف بمَ تجيبه، فهذا المكان أصلاً ليس مكانه، جاء في أشدّ الأوقات خطورة ومأساة، نظر إليها وكأنّ في ملامحها بيته وسكنه، عانقته وهمست في أذنه أنها لن ترحل مهما يكن في الرحيل راحة لها، وستبقى وإن كلّفها البقاء عمرها، لن ترحل دونه أبداً.

كاذبة صبا كسحابة صيف، وعودها زائفة كشمس الشتاء، ظل أعواماً يصدّق وعودها حتى حنثتها في ليلة غاب قمرها وتركته لمستقبل مجهول، قالت له بعد أن مسحت دمعاتها القليلة:

- العالم ليس ورد يا مالك، سيكسرك ولن يرممك، وكلّما انتهيت من إصلاح نفسك كان الكسر أقوى.

لم يفهمها ولكنه استمع إليها كعادته، وقفت أمام الباب وقالت قبل أن تصعد إلى الأعلى:

- الحياة لا تهبنا السعادة مجاناً، قدرَ ما تعطينا تأخذ، ويجب أن نحاول ألا ندفع ثمن عطائها غالياً.

لو كان يعلم أنها لن تفي بوعودها لما اقترب منها إلى هذا الحد، فالمسافات نجاة، اقترب منها كثيراً حتى عجز عن تجنب الألم النابع من بعدها.

.....

زار غسّان رندة في حلمها، وكانت أول زيارة له، سألها على نحو مباشر عن طفله الصغير، عجزت عن الإجابة، صرخ في وجهها أنّها ضيّعت الأمانة، بكى كثيراً نادماً على فعلته التي لا تعرف عنها شيئاً. استيقظت فزعة وشربت كأساً من الماء. لم تخبر أحداً بما رأته، لكن هذا الحلم أبى تركها وصار يراودها حتى تحوّل إلى كوابيس تأتيها كلّما تعمّقت في نومها، يعاتبها أنها تنام قريرة العين وابنه الصغير لا تعلم عنه شيئاً.

ها قد مضى أكثر من عام على وفاة زوجها وشريك حياتها، ولم تتغيّر كوابيسها، فطوراً ترى مالكاً ودموع العينين تغسل وجنتيه، وطوراً ترى غسان يلومها لخلاصها من ولده.

جلست جوار صبا على سريرها وتلك تذاكر دروسها، تنحنحت خجلة ثم سألتها عنه، نفت أنها تعرف مكانه، لم تفصح رندة لابنتها عن كوابيسها إذ كانت خجلة من نفسها، أما صبا فقد خافت أن تعرف والدتها مكان مالك فتسارع إلى إبعاده عنها، لن تبعده فهو الصديق الصدوق الذي يستمع إلى حكاياتها دون أن يملّ أو يعارضها أو يؤنبها.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

عودة إلى الحاضر

سينزل إلى المدينة ويلتقيها، لقد قرر وانتهى الأمر، كانت المدينة هادئة بعكس ضجيج قلبه الثائر والمتلهّف للقائها، خبت أصوات الصواريخ ولم يعد يسمع لها صوتاً، فحين ينزل إلى المدينة تتوقّف الحرب وكأنّها ما كانت، تأمّل جنون الشتاء، كأنه يودّع أيامه الباقية في هذه المدينة، نزل من سيّارته ومشى في الأزقّة الضيّقة، رأى عمر أمامه، يقف وسلاحه على كتفه يفتّش عن ثوّار المدينة ليعتقلهم، لقد خطّ الشيب شعر رأسه وكبر كثيراً في هذه الأعوام وكأنّه وحده من حمل هموم وطنه، لم يقترب منه، لن يعرفه ويخشى رد فعله، فعمر لا أحد يتوقّع ردود أفعاله، تركه واتجه إلى الزقاق المعاكس، إلى بيت عمر كي يلتقيها، طرق طرقات خافتة على الباب، تلك اللحظة القصيرة كانت له أياماً عاشها بألمٍ في ذاك القبو، تذكّر ذات اللحظة حين أفلتت والدته يده وهو ينتظر أن يفتح الباب، تغيّر المكان والزمان وصبا مازالت خلف الباب تفتحه له. لكنه خيّب آماله حين فُتِحَ وأطلّ منه صبي في عمر العاشرة، مسح على شعره، ودّ لو يعانقه، سأله الصغير عن هويّته، لم يجب، بل ظلّ يتأمّل الصغير وكأنّه يرى نفسه مكانه، أطلّت هي أخيراً

بجمالها ولطافتها، كأنْ لم تمرّ الأيام والسنين، مازالت تحمل بين راحتيها الحب والحنان، لا ينكر أنه يهيم بها عشقاً، رغماً عنه هام بها قلبه، لم تكن مجرّد امرأة عابرة بل كانت فكرة حبّ متجسّدة، قاطعت سيل أفكاره لتسأله عن هويّته، خاب أمله بها للمرّة الثالثة، أيعقل أن قلبها لم يدقّ لأجله؟ ألم يدلّها عليه؟ ألم يتعرّف فؤادها إليه؟ أفاق من أفكاره حين أعادت السؤال بنبرة حادة، فأجابها:

- أنسيتِ مالكاً يا صبا؟

فغرت فاها، من تراه ليس مالكاً، لا الصوت صوته ولا الوجه وجهه، حتى الجسد لا يشبه جسد ذاك النحيل، فقالت بدهشة:

- هل استبدلوك بآخر، أنا لا أرى أثراً لمالك.

ضحك بصوتٍ عالٍ وقال:

- لنتحدّث في الداخل.

وقبل أن تسمح له بالدخول، كان قد جلس على أريكة في وسط الصالة، يريد أن يعرف كيف تعيش مع زوجها، أهي سعيدة في حياتها؟

وضع ساقاً فوق الأخرى، بينما ظلّت واقفة تراقب هذا الغريب، إنه شخص لا تعرفه وتصرّفاته بعيدة كل البعد عن تصرّفات مالك، فالذي أمامها شخص

جريء قويّ لا يهاب أحداً، لا يمكن أن يكون هو، فهذا ذو ملامح جميلة، نفضت أفكارها عنها حين ناداها للجلوس جواره. قال لها بعد صمتٍ قصير:

- لقد جمّلتُ وجهي بعمليات تجميل كثيرة، قمتُ بها على مدار عدّة سنوات.
- إذن أنت مالك!
- أجل أنا مالك يا صبا.

هبّت صارخة بوجهه:

- أين كنت هذه المدة؟ لقد اشتقتُ إلى لقياك كثيراً.

ودّ لو يعانقها، لكن كسر لحظاتِ الودّ دخولُ عمر، أسرعت إليه تخبره بسعادة أن هذا ابن عمّه مالك.

طالعه عمر بترقّب وخشية، وسأل ذات السؤال الذي سألته صبا، وكانت إجابته نفسها. كان لقاؤهما فاتراً ولم يكن حاراً، أحسّ بنفور ابن عمّه منه لكنه سكت إجلالاً لروح الحبّ الذي يكنّه لصبا، بدأ عمر يحقق معه عن فترة غيابه، كيف تبدّلت أحواله للأفضل، كان يجيبه بأجوبة مختصرة وأحياناً يلتزم الصمت، لم يمنحه أجوبة ترضيه، استأذن منهما لينصرف، فوقف مقابل عمر ومدّ يده مصافحاً، صافحه الآخر، فشدّ عمر يده على يد مالك قائلاً:

- أسوأ الناس يا مالك من ازدهرت أحوالهم يوم جاعت أوطانهم.

هذا العمر ذكي جدّاً وهو يمقت الأذكياء ولا يحبّ اللعب معهم، أفلت يده من يد الآخر ووضعها في جيبه ثم قال:

- ألم تقل لي ذات يوم إنه علي إيجاد مكان في القمة، طلبتَ مني أن أتحوّل إلى صقر، فلم لا تعجبك مخالبي الآن؟
- ليس على حساب الوطن يا مالك.
- أنا لا أملك وطناً، لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة، وأنتَ يا عمر كنتَ مشغولاً بغرامك فلم تعلّمني إياها.

فتح الباب وغادر، وقبل أن يهبط الدرج لحقت به صبا ونادته بصوت خفيض، استدار إليها، فقالت:

- إن أردتُ لقياك، فكيف سنلتقي.
- ستجدينني في البيت الكبير.

سكتت قليلاً ثمّ قالت:

- أنا آسفة.
- ولم الأسف؟
- لتلك الليلة، أو لنقل لتلك الليلتين، الأولى والأخيرة، كلتاهما خيّبتُ فيهما أملك، في الليلة الأولى ندمتُ لأنني لم أبق معك حتى تعتاد الظلام، لم أفهم مخاوف طفلٍ في السادسة من عمره، كنتُ صغيرة

على أن أعرف ماهيّة الخوف الساكن فيك، حاولتُ الحفاظ عليك قدر الإمكان. منذ الليلة الأولى وقد اتخذتُ عهداً أن تكون طفلي الذي لم أنجبه من رحمي، لكني خذلتك في الليلة الأخيرة، كنتُ سأركض نحوك لأنقذك، لكنهم ما رحموني وأبعدوني عنك، لم يعرفوا أنك تحت الركام ولم أخبرهم إلا في اليوم التالي، آسفة لأنني لم أستطع الوفاء بالوعد.

- تلك الضربات كانت مؤلمة يا صبا، لكن خذلانك كان الضربة القاضية.

تركها ورحل، أغلقت الباب خلفه واستندت إلى الباب، كانت شاردة فيما قاله، استند عمر إلى الجدار فكان مقابلاً لها، سألها متعجّباً:

- ألا ترين أن أحواله باتت جيّدة؟

تطلّعت إليه ومازالت شاردة، فأكمل وهو يجلس على الأريكة:

- نحن تركناه لا يملك مالاً ولا طعاماً، فكيف أصبح بهذا الثراء الفاحش؟
- لا تحكم على أحد قبل أن يسرد لك قصّته.
- أنتِ طيّبة القلب يا صبا، عن أيّ قصة سيتحدّث؟ وكأن الحرب لم تطحنه بل استثمرته وغدا قويّاً وثرياً.

فكّر قليلاً وهو يحكّ ذقنه بمفتاح البيت، ثم قال:

– يجب عليكِ أن تعرفي منه تفاصيل الحكاية، فمالك لا يخفي عنك الأسرار.

أومأت برأسها وكلمات مالك قبل رحيله تتردد في ذهنها، ودّت لو أخبرته عن ندم والدتها إذ كانت مستعدّة للبحث عنه، لكنها فكّرت بعقل طفلة فقد ظنّت أن والدتها ستتخلّص منه، اعتقدت أنها تحميه، لم تكن تعرف أنها محته من سجلّات الوطن.

عاد إلى البيت بوجهٍ يكسوه الأسى، وقف في الشرفة وأجرى اتصالات عدّة فعادت القذائف تدكّ حصون المدينة إلا ذاك الحي الذي شهد لقاءً هادئاً بقلوب مليئة بثورات الماضي.

اقتربت سارة منه، نظرت إلى قسوة عينيه، كان يدخّن بشراهة، أدركت بحدسها الأنثوي أنه توصّل إلى صبا وإلا لما كانت حالته بهذه السوء، انتزعته من أفكاره بقولها:

– أنا آسفة.

لم ينظر إليها، لا يعلم لمَ تعتذران منه كلتاهما، أهو يوم الاعتذار العالمي؟ أم ماذا؟ أكملت هي:

– أعتذر لأنني جرحتك جرحاً عميقاً البارحة، كنتُ مصابة بخيبة الأمل منك فأشفقت على صغيري، أرغب ببقائه يا مالك.

وقبل أن تكمل، استدار إليها وقال:

– لن أمنعه عنك، لكن لا تأتي إليّ يوم ولادتك وتلعني سوء الحظ الذي أوقعك بي.

ثم صرخ في وجهها:

لستِ غريبة عني يا سارة، تعرفين وجهي القديم، كنتُ مسخاً، قبيحاً، لم أكن وسيماً يوماً، هذا الصبي سيكون نسخة مني، ووحدك من ستلام حين تلدين شيطاناً لن يكون إلا خليفة للشيطان الأكبر.

قبل إحدى وعشرين عاماً

مجد ويزن يلعبان معاً ويركضان حول شجرة التين، ويزن يلقّب مجداً بالشيطان، ذاك يركض ويضحك وخلفهما تضحك ولاء وآسيا، كلّما ذُكر اسم الشيطان يُخيّل إليه أنه المقصود، بينما يجلس وهو لا حول له ولا قوة ينظر إلى الأعلى، يشاهدهم ويتحسّر على حاله.

جلست صبا جواره تخبره عن حبٍّ نما في ضلوعها، مسح بأنامله دموعها الرقيقة واستمع لحكايات غرامها، قالت له:

- لكلِّ إنسان يا مالك أحزان تخصّه وحده، لكني لم أجد شيئاً يعادل الحزن الذي يأتي من الحب.

لقد كبر قليلاً، يمكنه أن يفهم ما تحكيه له، لقد أصبح في عمر التاسعة، فقال لها:

- الخذلان أشدّ ألماً.

نظرت إليه دَهِشة، أول مرة يجيبها، من المؤكد أنه يحمل في جعبته تجارب أكبر من عمره، قالت له وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة لطيفة:

- قد كبرتَ يا مالك وأصبحتَ تفهم ما الخذلان، أنت لا تعرف السبب الذي جعل والدتك تتخلّى عنك، لا تلمها قبل أن تسمع منها.

- أمي كانت تخاف على جرح مشاعري لذلك أبقتني في سجنها، وما إن خرجتُ منه حتى وجدتها تخلّت عني.
- الحياة ليست إلا مراحل متعاقبة من الأوجاع، لكل أمرئ حكاية مختلفة عن الآخر، غداً تكبر وتعي ما أحدّثك عنه الآن.
- هل سيكون لي يوماً بيتُ كبيرٌ كهذا البيت، مليء بالحب والورود، هل سيقبلني أحدهم يوماً؟
- أنت عظيم في عيني لأنّك ملاك، ستجد من يغرم بك لذاتك ولروحك البريئة.

تلك الكلمة تركت أثراً عظيماً في حياته، إنه إذن ليس شيطاناً بل ملاكاً. فاجأها بكلماته حين أكمل بنبرة يشوبها الألم:

- حين تملّين مني لا تهربي، قوليها ببساطة "لقد تعبتُ من حمل همّك، وما عاد لي القدرة على إكمال المهمة".
- ومن أخبرك أنك عبء على قلبي؟ أنت روحي ونصفي الآخر، أنسيتَ أنك طفلي؟

عانقها بطفولة، عانقته بأمومة، لم يخبرها أن عمر وراء أفكاره هذه، لم يمض إلا ثلاثة أعوام وها هو يشعر أن المهمة شاقة لكليهما.

استطاع مالك بفضل ذكائه تعلّم القراءة والكتابة والحساب، لم تعلّمه عن الوطن شيئاً بل تركته يكبر ويعرف الوطن من طريق تجاربه.

مرّت الأيام ببطء شديد وفي ذات يوم سمع أصوات عويل قادمة من الأعلى، كان مصاباً بالخوف على صبا، يخشى أن يصيبها مكروه فيطرده عمر، إذ كان يشعره أحياناً أنه غير مرغوب به وإنما يتقبّله مرغماً لأجل عيون صبا.

وصلته أصوات البكاء والنحيب، جلس أرضاً وخبّأ رأسه بين يديه، يتمنى أن يكذب إحساسه ولا يصيبها مكروه، حتى انتصف النهار ووجدها تنزل إليه باكية، ارتمت في حضنه الصغير، أخبرته بشهقاتها أن الجدّ قد مات، عن أي جدّ تتحدّث وهو الذي تخلّى عنه كما الجميع، مسح عبراتها بأنامله، وبعدها ارتمت على السرير وارتمى جوارها، وضعت رأسها على فخذه تخبره عن حنان جدّه وطيبة قلبه وتسامحه، لم يكن جدّاً لها لكنه عاملها بحنان وهي الغريبة عن الدار، وتخلى عنه وهو ابن الدار، عجيب هذا البيت كيف احتضن الجميع من دونه.

مضت أيّام العزاء وظلّ الحزن يسكن البيت، ومازال الأطفال يلعبون في باحة الدار ويغنّون، اقتربت رندة من صبا وهي تذاكر دروسها قرب البحيرة الصغيرة، سألتها عن سبب اختفائها كلّ يوم، لم تكذب عليها فهي لا تحب الكذب، أخبرتها أنها تنزل إلى القبو وتدرس هناك بعيداً عن الضجيج، فهي الآن في مرحلة الشهادة الإعدادية ويجب أن يتوفّر لها الهدوء، سألتها هل

ترى عفاريت أو تسمع أصواتاً، فرندة تخاف جدّاً من العفاريت والأشباح، أخبرتها أنها تلمح ظلالاً وتسمع أصوات بكاء، حين أرادت أن تردّ عليها غيّرت صبا دفة الحديث لئلّا تلفت نظر والدتها إلى القبو أكثر من ذلك، وسألتها عن كوابيسها التي أعلمتها عنها رندة فيما بعد:

- أمازالت كوابيسك تدور حول الصبي الصغير؟

تنهدت رندة، صمتت قليلاً وبعدها قالت:

- الكوابيس ذاتها تُعاد بطريقة بشعة، لا أنكر أني أخطأتُ في لحظة غضب وندمتُ على ما فعلت، لقد بحثنا في كل مراكز الرعاية الاجتماعية ولم نعثر عليه، تارة أرى غسان يعاتبني ويطالبني بالبحث عنه، وتارة أرى نظرات الصبي الصغير ودموعه التي تحرق روحي من شدّة توهجها، ليتني أبقيته هنا، لكن الجميع تخلّوا عنه، لستُ وحدي الملامة.

أومأت صبا برأسها وعادت تذاكر دروسها، لن تدلّها عليه، لن يرحمه أحد في هذه الدار ولن تقوى على الدفاع عنه إن تنمّر عليه الصغار. والدتها ليست قاسية فقد استفاق ضميرها فوراً لكن كل شيء قد انتهى، لن تخبر أحداً بسرّها وستبقى تشاركه مع عمر إلى أن تتغيّر الأقدار.

عودة إلى الوقت الحاضر

كان مالك يتناول فطوره مع سارة شارداً بلقاء الأمس مع سارة وابن عمّه، قطعت شروده حين قالت:

- أرأيتها البارحة؟

نظر إليها وعلى وجهه ارتسمت علامات الاستغراب فكأنّها تقرأ أفكاره، فسألها:

- من؟
- صبا يا مالك، أرأيتها؟
- أجل، هل ارتحت؟
- راحتي تأتيني حين أراك مرتاح البال، بعيداً عن حكايات الماضي.
- الماضي هو أصل الحاضر، ومن لم يكن له ماضٍ فلن يكون له حاضر.

تنهد قليلاً، ثم أكمل:

- اعتذرت مني عن ذاك اليوم.

عادا يكملان طعامهما والصمت ثالثهما، حتى بدّده بقوله بعد أن ارتشف من فنجان الشاي:

- تعبتُ يا صبا، كم أودّ أن تنتهي الحرب لأرتاح.

نزلت دمعتها على خدها، ثم قالت:

- أنا سارة يا مالك ولستُ صبا.

وقبل أن يعتذر منها رمت كسرة الخبز من يدها على الطاولة، وقالت:

- لن تعيد من مات إلى الحياة، لن تعيد الدُّور كما كانت، لن تعيد ازدهار المدينة، سترقص وحدك على جثثهم، لكنَّ من ذاق طعم الحرب لن يشاركك احتفالك، النصر لك والهزيمة لهم، سيجلسون وحدهم صامتين يتلقّون كلمات العزاء.

خرجت إلى الشرفة، استندت بمرفقيها على السور الحديدي، راقبت الطائرات وهي تدكّ حصون المدينة، هذا الوطن مازال صابراً وكلهم يقاتلون باسمه، مع الأسف فالجميع ينتمون إليه، انسكبت من عينيها دمعة يتيمة رغم محاولتها التظاهر بالقوّة أمامه إلا أنّ بداخلها وطناً يبكي، تمنّت لو بإمكانها حمل مدينتها والفرار بها بعيداً عن نار الحرب الهوجاء. شعرت به يقف خلفها، مسحت عبراتها قبل أن يراها فيشفق على أحزانها أو يوبّخها لضعفها، قالت دون أن تلتف إليه:

- أحلم باليوم الذي تزدهر فيه المدينة، ويرحل الخوف للأبد، أحلم بك ترافقني في رحلة الحياة ولا تخذلني في الشدائد، أرغب بشتاءٍ دافئ بالحبّ ينسيني ليالي الوحدة، صيف هادئ وربيع مزهر لا تعصف بهما رياح الغدر.

استدارت إليه وأردفت:

- حقّق لي أحلامي، أرجوك يا مالك، على رصيف الوطن إخوة لنا مهاجرون ضاقت بهم الحياة فكن لهم وطناً.
- لا سبيل لتحقيق الأحلام في وطن الحروب، هنا الأقوى من يحيا ويدير دفة الوطن، لستُ أنا من أوقد شرارة الحرب في الأعوام الأولى، ومع ذلك طالتني نيرانها وكنتُ أول ضحيّة لها، أخبرتكِ من قبل يا سارة إن بقيتِ بهذا الضعف فلن تحتويكِ المدينة، لن تحتوي إلا الجثث المرمية على أرصفة الطرقات، نحن الآن مع الأسف نعيش في بقايا وطن.
- أنت تهذي يا مالك، الوطن لن يتخلّى عن أبناءه.

ضحك بسخرية، وجلس على الكرسي ومدد ساقية فوق الطاولة الصغيرة، أخرج علبة التبغ، سحب لفافة منها وأشعلها، نفث دخانها، ثم قال:

- حدّثتني صبا عن ممتلكات الوطن وأنها ملكٌ للعامة، لكن حين كنتُ مشرّداً في أزقته كان أول من أقفل أبوابه في وجهي، كرسي في حديقة عامة، رصيف جانبي، مدرسة متهالكة، مسجد مهجور، مع الأسف جميعها طُردتُ منها، فلا تغلبك مشاعرك الجيّاشة في عشقك لهذه المدينة.

نظرت إلى قسوة عينيه ورأت فيهما شخصاً بالكاد تتعرّف عليه، قالت بعد صمتٍ آلمها:

- أريد النسخة القديمة منك، تلك التي وقعتُ في غرامها يوماً، هذه النسخة تخيفني.
- لن تجديني مؤذياً أبداً وإن خاب ظنّكِ بي، لن أتخلّى عنكما وسأبقى بجانبكما للأبد.

مع الأسف دائماً يضعها في الخانة ذاتها مع صبا، لمَ تشاركها في حبّه؟ عادت دموعها للانسكاب، وقف واحتضنها يمسح عبراتها، مسّد شعرها بحنان، وقال:

- لقد أوذيتُ من كل الأشخاص بطريقة مباشرة، وكل مرةّ كان يتأذّى جزء من روحي فيُبتر ويجعلني أتغيّر ولا أعود، لذلك آن لك أن

تفهمي أنني لا أقدر على العودة إلى نسختي القديمة، وإن عدتُ فحينها سينتهي دوري من مسرح الحياة.

قبّلها من جبينها ثم تركها ومضى، وقف على باب الشرفة وقال:

- الحرب كما لو فتحنا باب منزلٍ مهجور منذ آلاف السنين، لا نعرف أبداً ما سيحصل بعد أن يُفتح الباب.

صرخت في وجهه باكية:

- سيعاتبك الوطن وتعود لحضنه يوماً.

قابل صراخها بصراخٍ أشد:

- مدينة ليس فيها اسمي لا أعدّها وطني، أنا لا أملك وطناً يا سارة، ألم تفهمي بعد بأن وطنكِ لم يمنحني هويّة؟ لم يعترف بي أحد حتى أعترف بهذا الوطن، عائلتي هي أوّل من أنكر وجودي، سأقتلهم يا سارة وأشيّد قصر أحلامي على حطام منزلهم، سأرقص يوماً ما على جثثهم، لن أدع لهم وقتاً للبكاء لأنني سأجعل أوقاتهم مليئة بمجالس العزاء.

غادرها غاضباً حانقاً عليها، لمَ لا تفهمه أو تقف في صفّه؟ لو كانت صبا بجانبه فستفهم آلامه وأحزانه، ستغدو بيت أسراره، ابتسم لذكراها، سيذهب غداً

إلى بيت العائلة لعلّه يلتقيها، المكان الوحيد الذي جمعتهما فيه ذكريات كاملة.

قبل ثمانية عشرة عاماً

لم يعد مجد يلعب مع أخيه لعبة الشيطان، نسيا مالكاً وكل ما حصل بعد مجيئه، لكنهما ظلّا يتراكضان حول شجرة التين، أحياناً تشاركهما اللعب ولاء وآسيا، أحياناً يلعبون الكرة فتصطدم بزجاج نافذة غرفته فتصدر ضجيجاً عالياً يوقظ مالكاً من نومه، وأحياناً تجعل دقات قلبه تتصاعد من الفزع.

كان طوال النهار يطالع الكتب القيّمة والروايات، هذا السجن أفاده بعض الشيء إذ زرع فيه حب المطالعة.

نزلت صبا إليه، رقصت بسعادة أمامه، اليوم اعترف لها عمر بغرامه، دمعة حائرة خانت مالكاً وانسكبت، ستضيع منه وتذهب لغيره، سيجبرها عمر على تركه وعدم الاهتمام به، اقتربت منه وعانقته بسعادة قائلة:

- أتعرف معنى أن تكون عابر سبيل في دنيا وفجأة تعود إلى وطنك؟ عمر وطني الجديد.

كيف تحكي له عن الوطن وهو لا يعرف معنى هذه الكلمة، كل ما يعرفه أنها سترحل عنه ذات مساء دون أعذار ودون تلويحات الوداع. قال لها:

- أنتِ الحياة لي وما دونكِ موتٌ محتّم، لا ترحلي.

ارتمى في حضنها، خائفاً من رحيلها، يخشى أن تبتعد ولا تقترب ثانية، أبعدته عنها قائلة:

- لن أرحل دونك، سأبقى هنا معك.

لا تعرف لم انقبض قلبها من هذا الحزن الساكن فيه، تريد له نسياناً رحيماً ليعيش ما بقي من حياته سعيداً، لكن لا شيء يمضي في ذاكرة طفلٍ صغير، إنه يعتاد مرغماً دون أن يملك رفاهية اختيار الطريق، الكبار اختاروا وقد مشى خلفهم.

خرجت لتذاكر دروسها، لقد أصبحت في الثانوية وعليها الدراسة بجدٍ لتحصل على شهادة تؤهّلها لدراسة الحقوق، فتدافع عن حقوق مالك وتجبر المجتمع على تقبّله ومنحه هويّة تليق به.

في المساء كما العادة نزل إليه عمر، سار في غرفته، تأمّل ما كُتب على الجدران الرطبة، أما مالك فلم ينظر إليه بل ظلّ يطالع الكتاب القابع بين يديه، لقد تفوّق في القراءة على عمر وصبا، كيف لصبي مثله في الثانية عشر من عمره أن يحتمل بقاءه في السجن ستة أعوام دون أن يشتكي يوماً، ويجهل مصيره المستقبلي، قطع عمر قراءته حين قال:

- جِد لنفسك مكاناً في القمّة، كن كالصقر يا مالك، مهما طالت به المسافات يستقرّ في أعالي الجبال.

نحّى مالك الكتاب جانباً، ابتسم بسخرية من كلامه غير العادي وقال:

- الصقور تُولد صقوراً، أما أنا فأشعر أني أرنب يظلّ في جحره، يخشى وكر الأفاعي الملاصق.
- كبرتَ يا صغيري وأصبحتَ فيلسوفاً.
- لو عشتَ معي في ماضيّ لكنتَ مثلي.
- وربّما أفضل.
- وكيف ذلك؟
- لكنتُ انتفضتُ، ثرتُ عليهم، ما الذي يمنعك الآن من الخروج ومواجهة الجميع، لو عشتَ عمرك كلّه في ماضيك فستفقد حاضرك ولن يكون لك مستقبل.

أيحرّضه أن يثور على الجميع وهو ما يزال طفلاً صغيراً يخاف أن تفلت يده صبا، شرد كثيراً بكلامه وبعدها قال:

- ماذا سأستفيد من الثورة؟ سيحكم عليّ بالنفي، لن آكل طعاماً لذيذاً ولن تحميني أربعة جدران.

ابتسم بتهكّم، ثمّ قال:

- أتسمّي الفتات الذي يُرمى إليك بالطعام؟ أتصف هذه الغرفة القذرة بالأمان؟

ضاق الصغير به ذرعاً، فصرخ في وجهه:

- إنك لست في مكاني، لا تضيّعني يا عمر، أنا أعيش على هامش الحياة وأرضى بالقليل لأكمل حياتي مع أنها خالية من الشغف لكنني مصرٌّ على العيش.

صمتَ قليلاً، ثم أكمل:

- أنت من يجب عليه حمايتي لأنك ابن عمّي وسندي في هذه الدنيا، أعتقد أنك لا تكنّ لي الحبّ مع أنني رأيتك أحياناً ترسم قناع الحبّ على وجهك، ربّما لأجل صبا وليس لأجلي.

- إنك أذكى مما توقّعت، حافظت صبا على الأمانة جيّداً، أنا لا أحبّك يا مالك، لكن لا أكرهك، أخشى فقط أن تكسر يوماً اليد التي امتدّت لك، إن كان وجودك سيخسرني حبّ عمري فحينها سأفعل المستحيل لتترك هذا المنزل.
- لا أعتقد أني قادر على تشكيل تهديد لك، منبوذ في غرفة لا تصلها الشمس، ستكون قبري ذات يوم، فاتركني وشأني ولا تلقّني كيف أعيش، لا أريد منك سوى أن تدعني أكمل حياتي بسلام.

حتى هذه الأمنية مستحيلة، فعمر يخاف من تعلّق صبا المبالغ فيه بالصغير، يخشى أن يصبح هو الطرف السيّء في حكاية الحب هذه، ومع أن مالك يصغر صبا بستة أعوام إلا أنه يخشى أن يستيقظ يوماً ويجدهما على علاقة حبّ وهو المنسي.

توالت الأسابيع ولم يحصل شيء، حياة هادئة يقضيها مالك في سجنه، اختصرت صبا زيارتها إليه وانشغلت بدراستها، أصبح عمر يهتمّ به، رحّب بالفكرة ولم ينزعج، هذه فرصته لكي يبعد الصغير عن أحضانها، أما صبا فكانت لا تعرف شيئاً عن الأحاديث الدائرة بينهما والحرب الباردة التي تقام في السر بعيداً عنها.

هدأت الحياة في هذا البيت إلا من ضجيج الصغار، استيقظ مالك صباحاً على صراخ النسوة، هبّ مذعوراً من نومه، أيعقل أن يصيبها مكروه، ظلّت

هذه العقدة في حياة مالك _عقدة التخلّي_ دائماً ما يخاف أن تتخلّى عنه لذلك كان يخشى أن تفلت يده فيحتضنها في كل مرّة تنزل إليه ويمسح على وجهها ليتأكّد أنها حقيقة ماثلة أمامه، وفي نهاية كل لقاء يعانقها ويهمس في أذنها ويتوسّل إليها ألا تطيل الغياب، وذلك لأن عمر دائماً يوصل إليه شعور أنه مستبعد من حياتهم وغير مرغوب به، لكن صبا مازالت تؤدّي واجبها اتجاهه لتصون أمانة زوج والدتها، كان عمر يردد دوماً أن صبا لا تفعل ذلك إلا لكي تردّ الجميل لزوج والدتها لأنه كان لها أباً وربّاها دون أن يفرّق بينها وبين طفليه.

ظلّ يتجوّل في الغرفة بانتظار أن يصل أحد منهما ويخبره بأن ما يفكّر فيه ما هو إلا أوهام لا أساس لها، قطعت صبا سلسلة أفكاره بعد ساعات من الترقّب، ارتمت على الكرسي، ركض إليها واحتضنها بحبّ قائلاً:

- خفتُ أن تهربي من واجبك تجاهي.

أمسكت وجهه بين يديها وقالت:

- أخبرتك قبلاً أني لن أتخلّى عنك، أهناك أمّ تتخلّى عن وليدها؟

ارتسم الحزن على صفحة وجهه، فأدركت فداحة ما قالته، صمتت قليلاً ومسحت دموع عينيه، ثم قالت:

- لربما هناك أسباب قاهرة جعلت والدتك ترحل عن ملاك مثلك.

- لستُ ملاكاً يا صبا، أنا شيطان.
- ومن قال لك هذا الكلام السيّء؟ أنت بريء من خبث البشر، يكفي أنك صادق النوايا.

نظر إلى الأعلى وغيّر الحديث المكرر لئلّا يصاب بنوبة من نوبات الحزن الشديدة، ثم قال:

- من مات اليوم؟
- جدتك.

ضحك وقال:

- هل جربتِ حضنها؟
- لا، لأنها لطالما اعتبرتني ابنة كنتها، حضنها كان حكراً لأحفادها فقط، وأنا لم أذقهُ يوماً.
- وأنا! ألستُ حفيدها؟

سكتت قليلاً، ثم غيّرت دفّة الحديث بقولها:

- أتدرك يا مالك أن أهل البيت إلى الآن لم ينسوا ما حصل قبل ستة أعوام، وكأنّه كابوس انجلّى وخلّف آثاراً قاهرة.

قاطعها قبل أن تكمل:

- أأنا كابوسٌ يا صبا!؟ أهكذا ترينني؟
- أتحدّث عمّا فعله عمي غسان، أنت لا ذنب لك فيما حصل. والدتي إلى الآن لم تسامح أباك ولا تعرف إن كنتَ موجوداً، دائماً أجدها شاردة فيك وفي والدتك، وتسأل نفسها دوماً أكان زواج والدتك من زوجها حقيقياً؟ أم علاقة غير شرعية عابرة؟ وكيف لا يعرف والدك شيئاً عنك؟ أسئلة كثيرة دارت حولك، هم حاولوا النسيان لكن والدتي كانت توقظ الحكاية من سباتها ولاسيما بعد أحلامٍ عديدة أخبرها والدك فيها أنها لم تصن أمانته، وأحلام تراودها وأنت تنظر إليها بعتاب ودمع في العيون ترقرق، فالبارحة حلمت بك تخبرها أنك أقرب مما تظن.

سكتت قليلاً تنتظر ردّاً منه، لكنّه ظلّ صامتاً ينظر إلى الأعلى ويستمع إلى عويل النساء، فقالت:

- سامحها يا مالك، هي امرأة خانها زوجها ولم تقدر على رؤية ثمرة الخيانة.

ترددت هذه الكلمة في ذهنه كثيراً (إنه ثمرة الخيانة) قال لها:

- ليس كل جرحٍ يطيب من غدر صغير، هناك فرق بين أن تزعج شخصاً أو تجرحه، الانزعاج سيُنسى بعد ساعة، ولكن الجرح

سيبقى ولن تشفيه الأيّام، أنتِ شاهدة على جرح والدتك، وأنا شاهد على جرح والدتي.

نظر إلى الجدار وقال لها:

- انظري هنا، كتبتُ على هذا الجدار مأساتي مع أمي لئلّا تطويها الأيّام فأنساها، لكلّ منّا جرح غائر لن تُبرئه كلمة اعتذار.

يا إلهي هذا الفتى قد كبر قبل أوانه، التجربة صقلته وعلّمته كيف يكون رجلاً.

عودة إلى الوقت الحاضر

- كنتُ أعلم أني سأراك هنا؟

استدار مالك فرأى صبا بكامل أناقتها، ابتسم لها بودٍّ وقال:

- كيف عرفتِ؟

اقتربت منه وقالت:

- قلبي يدلّني على مكانك، أنسيتَ أنك ابن قلبي؟
- أين كان قلبك كل هذه السنوات؟
- لم أكفّ عن البحث عنك، أنت ابني يا مالك.
- كنتُ يا صبا، وقد تخليتِ عني.
- لم أتخلّ عنك، لكن الظروف ما حكم علينا، لا نستطيع أن نسير كما كنا وعلى هوانا. والآن تغيّرت الأحوال، أنتَ أصبحتَ رجلاً، وأنا سيّدة متزوّجة ولدي طفل.

سكتت ولم يعلّق على كلامها، نظر إلى الأرض ثم إليها وقال:

- لكنني كنتُ أقرب إليكِ منه وهو يعلم ذلك.
- الماضي رحل يا مالك، لا تبقَ أسيره.

حاولت تغيير دفّة الحديث بسؤالها عن أحواله:

- أخبرني الآن كيف تبدّلت أحوالك من معدم إلى ثري.
- الدنيا تغيّر الأحوال، ألم تقولي يوماً إنه يجب علي سرقة لحظاتي من الحياة إن لم تمنحني إياها؟
- أفعلتها على جثّة الوطن يا مالك؟
- عن أي وطنٍ تتحدّثين، أنا لا أنتمي إلى هنا، لم أشعر يوماً أني ابن له.
- لكنّك عشتَ فيه، وطن والدك هو وطنك.
- كفاكِ شعارات زائفة، أنت آخر شخص تتكلّم معي بهذا الشأن لأنكِ تعرفين كل لحظاتي التي قضيتها في الأسفل، هذا البيت كله ليس لي فيه ذكرى واحدة إلا ذاك القبو الصغير.

وقف قرب شجرة التين العارية من الأوراق وأكمل:

- هنا لعبتم وضحكتم، سخروا مني لأعوام وهم يلعبون لعبة الشيطان، كنتُ أسمعهم وأتمنى أن أشاركهم جزءاً صغيراً من مرحهم، هذا البيت احتضن الجميع وعند وصولي أنزل يديه وأشاح وجهه عني.
- إذن في صفّ من تقاتل؟
- أخبرتك أني لا أنتمي لأحد، سأقتل كل وغدٍ يعيش بينكم.

نظرت إلى قسوة عينيه وكأنه آخر لا تعرفه، فقالت:

- تغيّرتَ كثيراً يا مالك، وكأنّك آخر لا أعرفه، من أنت؟
- مر اثنا عشر عاماً على تلك الليلة، الإنسان يتغيّر في عام فما بالك بأعوام عديدة، لم تسألي كيف قضيتها؟ أين كنت؟ كيف تجاوزتها؟ لم تسألي إلا عن ثروة جمعتها، من أين لك هذا يا مالك؟ لكن لم تفكّري كيف قضيتُ أيامي، أنتِ الوحيدة الشاهدة على جراحي ومع ذلك دستِ على آلامي مثلهم، لمَ يا صبا في كل مرّة تخيّبين توقعاتي بك؟

صرخت في وجهه:

- لأنني أريد ملاكي الحارس الذي ربيّته واحتضنته، عانقته أكثر مما عانقتُ أخويَّ التوأم، كنتُ بحاجتك كما كنتَ بحاجتي، لذلك خبّأتك عن الجميع لتكون خاصاً بي، أنت طفلي الذي لم أنجبه، فحين أجد أن تربيتي لك قد باءت بالفشل فسأتدخل وأمنعك من التقدّم للأمام، وحدي من سيوقفك يا مالك.
- لا تقفي في وجه البركان، سيحرقك ويتركك رماداً منثوراً.

ابتسمت بألم وقالت:

- ومن قال لك إنني لستُ كذلك، الحرب قتلت كلّ جميل فينا، القتل في المدينة أصبح عادة روتينية مملّة، كلهم يقتلون باسم الوطن

وهو بريء من أفعالهم، لا نعرف الحق مع من، ولا نعرف لمن نطأطأ رؤوسنا، الحرب جعلت الجميع يحملون أسلحتهم ليقاتلوا في صف الوطن، لن يسمعوا صراخنا بعبارة (أوقفوا القتل) كل فرقة تعتقد أنها على حق، مع الأسف جميعهم أبناؤه.

اقتربت منه وأكملت:

- الوطن ليس له ذنب فيما حصل، لو كان غسّان حيّاً لكان الوطن انتقم لك منه، فلا تحمّله ما لا طاقة له به، كن رحيماً به ولا تكن عاقاً، لا تكمل حياتك بهذا السوء وعد مالكاً اللطيف.
- لا مكان للضعفاء في هذه المدينة، لستُ سيئاً، بل أنا الأسوأ على الإطلاق، فالطفل حين لا تحتضنه القبيلة يعود يوماً ويحرقها ليشعر بدفئها.

ارتدى نظارته الشمسية وغادرها، تركها في ساحة الدار تسمع ضحكات أطفاله، تستمع إلى ثرثرة والدتها مع نساء الدار، هنا درست دروسها، وهنا جلست وعمر يغازلها بحلو الكلام.

نزلت إلى القبو، كلّ شيء كما كان حتّى ذاك الجدار المهدّم جرّاء قصف تلك الليلة قد بُنِيَ، يبدو أن مالكاً مهتم بهذا الجزء من الدار، وصلت إلى الجدار الرطب، مرّت بيدها على كلمات مالك الأخيرة وهي تستذكر ما قاله أنه

سينقش جراحه على هذا الجدار لئلّا ينسى ألماً عاشه هنا، تنهدت بألم ومسحت دمعة خانتها، هنا ذاقت أول حضن بريء وصادق، وهنا بكت كثيراً بين ذراعيه، كانت تتجرّد من كبريائها وصمتها وتبدأ ثرثرة طويلة لا تنتهي إلا بعناق مالك لها ما إن يرى عبراتها، عاد الدمع مجدداً مسحته بغضب وخرجت من البيت، مشت في الحارة، تأمّلت دورها المهدّمة، عادت تنظر إلى بيت العائلة الذي لم يمسّه الحرب في حين أن كل الدور حواليه قد خرّت ساجدة، أدركت حينها أن مالكاً ما هو إلا جزء كبير من الحرب ووحده قادر على إيقاف نزيف الدم بين الأخوة.

قبل أربعة عشرة عاماً

لم يعد عمر يسمح لصبا بالنزول إلى القبو، لكنها في مرّات عدّة نزلت خفية عنه، فهي لا تقدر على مفارقة مالك، وحدها من منحه العناق الأول والأخير في هذا البيت، أما عمر فقد كان يفكّر أبعد مما تفكّر صبا، إذ إن مالكاً أصبح في مرحلة المراهقة ويخشى من تعلّقه الزائد بمحبوبته، مع إنه لم يكن يعير الأمر أي اهتمام، بات يدرك أنّ عمر يغار على صبا منه لذلك لم يعاتبها في أمر ابتعادها عنه، منذ أن صارحته بأمر غرامها أدرك أن رحيلها عنه مسألة وقت ليس إلّا.

اقترب منها ووقف قبالتها، ارتجفت شفتاه فأدركت أنّ على لسانه كلاماً يودّ البوح به، أعطته إيماءة من رأسها فحثتّه على الكلام: قال لها:

- إلى متى سأبقى هنا؟ ها قد مضت عشرة أعوام مازلتُ في الركن ذاته منسيّاً بين أربعة جدران رطبة.
- العالم ليس رحيماً كما تظن، لذلك لن تجد فيه الأمان، لن تقدر على العيش خارجاً.
- تعبتُ وأنا أحدّق في الفراغ، أشعر أني أتلاشى ها هنا، كلّ شيء صامت إلا عقلي، أرجوكِ جِدي حلاً سريعاً.

فكّر قليلاً، ثم فاجأها بقوله:

- ما رأيك أن نهرب معاً؟

فغرت فاهها دهشة من طلبه، أيطالبها بالهروب معه وهو لا يعلم ما ينتظره في العالم الخارجي؟ أجابته بعد حيرة قصيرة:

- هذا العالم يا مالك كبيضة في وعاء، لا نعرف إن كانت ناضجة إلا إذا كسرناها، الحياة لن تصقلك إلا إذا كسرتكَ، لا تعرف ما الذي ينتظرك خارجاً وأين ترتمي، كل الأماكن ستطلب منك الوقوف، لن تقدر على إخفاء تورّم عينيك من البكاء، سيكون الأمر شاقاً على روحك، لن تستطيع التفاهم مع بني جنسك.

قبّلته من جبينه وغادرت قبل أن يكرر مطلبه، كيف تشرح لطفل في السادسة عشرة ما يعنيه الحب؟ هذا الغرام ما هو إلا وهم اخترعه عقله لأنه لا يعرف سواها.

حمل الكتاب مرّة أخرى وعاد يقرأ وفي داخله اجتمعت أحزان الدنيا، نظر إلى الأعلى واستمع إلى ضحكات التوأمين، لقد كبرا، تمنّى أن تخبرهما صبا بالحقيقة وأنه أخوهما وله حقّ عليهما، كبر التوأمان وأصبحت لعبة الشيطان من الذاكرة، أصبحا يجلسان مع عميّهما ويشاهدان المباريات، لم يعودا يمارسان كرة القدم هنا، بل يذهبان إلى الملعب يومياً مع أبناء الحارة، هذا البيت مازال فاتحاً أبوابه للجميع، كثُرت أحاديث الفتيات في الليل الطويل،

أحياناً يستمع إلى صخبهن، وأحياناً يتجاهلهن ويقرأ كتاباً، لم يعد عمر يضايقه كما في السابق كأنه استسلم للأمر الواقع، أو يدبّر له مكيدة تبعده عن صبا، ولكن هناك سؤال يلحّ عليه متى سيخرج من هنا؟ لقد تخرّج عمر في الجامعة منذ عامين، والآن يعمل في شركة استيراد ضخمة، وعده أن يحقق حلمه بالخروج من هنا، لكن عليه الصبر إلى أن يدبّر أموره، وعده أن يكون له عوناً في أمور حياته المختلفة إضافة إلى تكفّله بمصاريفه، سيبعده عن صبا ويقتني له مسكناً بعيداً عنهما ليجعل من اللقاء أمراً مستحيلاً. كان إطلاق الوعود على لسان عمر سهلاً للغاية، مجرّد كلام يخرج من فمه، لكن تنفيذها أمرٌ في غاية الصعوبة وربّما مستحيل ومع ذلك تمسّك مالك بهذا الأمل، كغريق مُدّ له حبل لينجو وحين الوصول لُفَّ على عنقه وخنقه، كان الشرط إبعاده عن صبا، امتعض من هذا الوعد، فلا يقدر على العيش دونها، لا يعرف كيف ستقضي الأيام دون أحاديثها، ومع ذلك كان هذا خيط النجاة الوحيد، وافق مرغماً وهو يدرك أن صبا لا تعرف بأمر هذا الشرط، لكنه إن لم يوافق فسيُطرد من هنا دون رحمة، لا يملك حق الرفض أو القبول، لم يمنحه خيارات رحيمة، إما القبول وإما الطرد، وافق متألّماً وفي قلبه أمل أن تتغيّر قواعد القدر لصالحه.

شهور مرّت بعد هذا الاتفاق وانقطعت أخبار صبا عنه، لم تعد تأته خفية كما اعتادت، عمر فحسب من يحضر له الطعام دون أن يخبره شيئاً، أوّل مرّة

يشعر أنه سجين ويُعامل معاملة السجناء، ماذا زرع ليجني كل هذا الألم؟ انسكبت الدموع تحرق وجنتيه، أدرك بعقدة التخلي أنها تخلّت عنه للأبد، لم تصله رسائل منها تسوّغ غيابها، فأوجعه الأمر، وكأنه سجين ينتظر الحكم لإعدامه، في كلّ مرّة يسمع خطوات على الدرج يحسبها هي فيخيّب عمر ظنّه ويخبره ألا ينتظر ويترك الأمر للمصادفات، ربما تزوره يوماً، هذا العمر ماكر يعذّب قلبه ويتلاعب به إذ وحده يعلم أنها لن تأتي، لكنه يعبث على وتر الانتظار.

- إن الأشياء الرائعة تأتينا حين نكفّ عن انتظارها.

هكذا قال عمر مبتسماً، نظر مالك إلى ملامح ابن عمّه، فأحياناً يشفق على حالته، وأحياناً يشعر بنفوره، وأحياناً يكون غامضاً لا يعرف الشعور الذي يستورده منه.

في المساء فنّدت صبا كلام عمر ونزلت إليه، جلست على الكرسي قبالته، وبلهفة مراهق عادت أمه بعد سفرٍ طويل فهمّ باحتضانها كعادته، فوضعت يدها أمامه وقالت بلهجة حادة لم تصدرها من قبل:

- لقد كبرت على العناق يا مالك.

أصيب بخيبة أمل، لم يتوقع قسوتها، اقتربت بجذعها منه وشبكت أصابعها، ثم قالت:

- تعلّم كيف تحضن نفسك في كلّ مرّة تصاب بخيبة الأمل.
- لقد طال غيابك هذه المرة، عسى أن يكون المانع خيراً.
- لم يكن الأمر بيدي.

رفعت يدها اليمنى مقابل وجهه وقالت بسعادة:

- انظر إلى ما في أصبعي، لقد خُطِبت، إنه قيد جميل ولاسيما حين يقيّدك من تحب.
- ومتى كان هذا؟
- قبل أشهر من الآن، ألم يخبرك عمر؟
- لم يخبرني شيئاً.
- ربما شغله أمرٌ ما، ألن تبارك لي؟
- مبارك يا صبا، عرفتُ الآن سبب ابتعادك عني.

اقتربت منه وجلست جواره قائلة:

- حزنك المعقّد هذا لا أحد يستطيع فهمه سواي، ما بيدي حيلة يا مالك، لم أستطع أن أخيّب ظن عمر بي.
- وما شأني بعمر، أنتِ من أطلقت العهود ألا ترحلي.
- أنا لم أرحل، لكن عمر يخاف من تعلّقك الزائد بي، لذلك أراد لكلينا الابتعاد لتعتاد على الأمر فيما بعد.

- الاعتياد مؤلم يا صبا، أنتِ لم تخبريني بذلك من قبل، وكأنّ الأمر يخصّك وحدك، افهمي أني أتأكّل من الوحدة بين جدران رطبة.

ثم صرخ في وجهها:

- إذن حرَّراني، لا تبقياني لعبة بين أيديكما، لقد مللتُ سجنكما، أريد الخروج من هذه الدوّامة بأقل الخسائر، أنتما دمرتما حياتي، لِمِ أبقيتني هنا ووالدتك ما فتئت تسأل عني، لربما كان بمقدورها مساعدتي للخلاص من هذا القبو.

أول مرة يصرخ في وجهها دون مراعاة أن يسمعه أحد، لقد طفح به الكيل ولم يعد يطيق صبراً، فصرخت في وجهه رداً على صراخه:

- أهذا جزاء من ساندك؟ افهم يا مالك أنك هنا لأحميك من الجميع، أبقيتك في هذا المكان لئلا يعبث أحد بك، كلّهم سيتنمّرون عليك، ستكون مادة دسمة للسخرية، حميتك من كلماتهم اللاذعة وسخريتهم المبطّنة، لم أدعك هنا إلّا من أجلك لئلّا تجرحك كلماتهم.

لكنها جرحته بكلماتها مع أنها الواقع، تحسس وجهه بكلتا يديه وقال:

- شكراً يا صبا على كلماتك هذه، لهذا كلما طلبتُ منكِ مرآة تدّعين نسيان الأمر، لذلك تخلّت عني والدتي ومات أبي حين رآني، أنا أعرف ذلك ولكن الحقيقة حين تسمعها من فم غيرك تؤلمك.

ابتسم بسخرية ثم قال:

- لأنني مسخٌ، لم يتحمّلا رؤيتي.

وقف ونظر إلى النافذة في الأعلى ثم إليها وأكمل:

- إذن لِمَ يخاف مني عمر؟ لن أكون له ندّاً إطلاقاً.

وقفت جواره ووضعت يدها على كتفه، فنفضها وابتعد عنها، قالت معتذرة:

- آسفة، لم أقصد إيلامك، لكنها الحقيقة التي غفوتَ عنها، الحياة لن تكون بكَ رحيمة.

مسحت دمعاتها، وقبل أن تصعد قالت:

- أعتذر لأنني خيبتُ توقعاتك ولم أستطع إكمال المهمة.

لقد أرادت جرحه ليتخلّى عنها بإرادته، لا طاقة لها بمجادلة عمر كل يوم في محاولة إبعادهما عن بعض، لقد تعلّق بها تعلّق الصغير بوالدته وكان الأمر مجهداً للجميع.

استلقى على سريره، تأمل السقف وهو شارد في حديثها، لو أن حمل الدنيا خفيف على قلبه لكانت الحياة أسهل، لم يستطع نسيان قسوة حديثها، تلك الكلمات جعلته إنساناً آخر، لقد كان وحيداً في هذا الوداع، لم تلوّح له فكان وداعها بطعم الحنظل، صامتاً من جهته، جارحاً من جهتها كوداعه وأمّه، أكان التخلي سهلاً على الجميع إلى هذا الحد، سيمضي العمر وهو عالقٌ في هذه اللحظة، ومنذ هذه الليلة لم يعد كما كان.

عودة إلى الوقت الحاضر

كان يدخّن في شرفة منزله، يستمع إلى أزيز الرصاص القادم من الجهة الشرقية للمدينة، هذا الصوت يُتعب روحه ويمزّق أفكاره، حمل هاتفه واتصل على أحدهم، أمره أن ينهي هذه الأصوات المزعجة، وما هي إلا دقائق حتى هدئت المدينة، اقتربت منه سارة وجلست قبالته، قال دون أن ينظر إليها إذ كان يتأمّل الدخان الأسود الصاعد من الأبنية المدمّرة:

- أتعرفين يا سارة أسوأ ما يهزّ قوّة الإنسان، فقده من عاهده على البقاء وعدم إفلات يده، أسوأ شعور أن يفلت يده في الزحام في شارع مكتظ بالغرباء.

ظلّت صامتة تتأمّل حزن عينيه، نفث دخان لفافة تبغه وأكمل:

- أذكر أنكِ ثرثارة، متى ألجم الصمت لسانك؟
- لا أبداً، لكن ليس لدي ما أحكيه، الكل عاهدنا على البقاء ورحلوا، أحياناً الحياة تتعبُ الطرف الآخر فيفلتُ يده مرغماً، لا أحد يعاهد على البقاء ويرحل إلا إذا كان قد بكى كثيراً من هذا القرار الذي أكل قلبه ومشاعره قبل أن يصدره علينا، لذلك نجد الجميع يهربون من ألفاظ الوداع لأنها ثقيلة على لساننا.

أشاح وجهه عنها بعد أن كان يرنو إليها، إنها لا تفهم آلامه لأنها لم تكن معه حين تمّ التخلّي عنه. غيّرت مجرى الحديث بقولها:

- أرأيتَ صبا البارحة؟

نظر إليها بطرفِ عينه ورمى عقب لفافة التبغ أرضاً، دهسها بحذائه، وبعدها قال:

- اطمئني يا سارة، انتزعتُ من قلبي كل المشاعر التي لا تليق بي، وانتزعتُ الأشخاص أيضاً كي لا يقفوا أمامي.

إنها رسالة مبطّنة وواضحة، يخبرها فيها ألا تقف أمامه في حربه هذه، لكنها أبت أن تكون شاهدة على سلخ الوطن، فسألته"

- من تحارب؟
- الجميع.
- إن عرف أهل المدينة فسيقتصّون منك.

ضحك بعبث وقال:

- أنتِ غبية لأنك إلى الآن لا تعرفين الشيطان، إنني أدفعهم ليحاربوا غيرهم باسم الانتماء، انظري إليهم ليس فيهم قوى معادية، كلهم أبناء مدينتك وكلّهم يحاربون باسمها، وفي النهاية سيموتون إما فداءً لأموال الخارج وإما فداء لشعارات رنانة، وبعدها ستضيع أسماء الموتى في الزحام ولا يعرف غريمهم أحد.

وقف وارتشف رشفة من فنجان قهوته، ثم قال وهو يضعه على الطاولة أمامها:

- في نظرهم أنا متفرّج على حياتهم، وبنظري أنا من ينهيها.

ربت على كتفها مُكمِلاً حديثه:

- تعلمتُ من الحياة أن علي حمل سيفي دائماً، ربما سأحتاجه مرّة على الأقل.

تركها ودخل إلى الصالة، جلس على الأريكة يشاهد الأخبار على شاشة التلفاز، لحقت به ووقفت جوار التلفاز قائلة:

- الانتقام وجبة لذيذة دون أن تقوم بصنعها، بل حين يبدع القدر في إعدادها. هذا الوطن ملكٌ للجميع ومن واجبنا حمايته، لا أن تتركه يتجرّع الحرب وحده.

زفر بصوتٍ مسموع ورفع صوت التلفاز متجاهلاً إياها، فجلست جواره ووضعت يدها على كتفه تريد أن تكمل لعلّه يستعيد وعيه ويبعد عن الانتقام، فنفض يدها وصرخ في وجهها قائلاً:

- إياكِ أن أسمعك تعيدين على مسمعي أن هذا الوطن ملكٌ للجميع، وعلينا حمايته من الأعداء، لا يهمني من يحارب في المدينة ولا يهمني من مكث بها، مدينتك هذه التي تفخرين بها لم أجد فيها الأمان يوماً ولم تدافع عن حقوقي، لم تمنحني الحب والحنان يوماً.

ثم هدأ قليلاً وقال لها وهو يشاهد التلفاز:

- لا تقفي في وجهي يا سارة، حين تنزلين إلى المدينة سيدققون في هويّتك، ويفتّشون عن حارتك، ويتأملون لون عينيك، ليقرروا بعدها

ألك الحق في الانتماء لوطنهم، أم يجب أن ترحلي بدعوة مجانية إلى الآخرة. هذه الحرب لستُ من أشعلها يا سارة.

- لكن لن يطفئها سواك.
- لن أطفئها قبل أن تبرد نيران قلبي.

قبل اثنا عشر عاماً

لم تصدق صبا الوعد مع عمر، حنثت به غير قادرةً على تنفيذه، إذ كلّما غاب عن البيت نزلت إلى القبو، الآن تعمل في مهنة المحاماة التي أحبتها ونذرت نفسها لتعين مالك على شدائده، اشترى عمر منزلاً صغيراً ليبتعد عن عائلتهما، وسيستقر به بعد زواجهما، رفض أن يستقرّ مالك معهما في نفس البيت لذلك اشترى له غرفة صغيرة جوار بيته كي يطمئنّ على أحواله وبذلك يكون قد أوفى بوعده لصبا، أما هي راقها الأمر كثيراً ولم تعترض.

سألها مالك بقلق وهي جالسة جانبه تخيط قميصه:

- أتنصفني الحياة يوماً؟

تنهدت وقالت بعد أن قطعت الخيط بأسنانها:

- إن لم تنصفك فحاول مرّة أخرى ولا تيأس، لقد درستُ الحقوق من أجلك وأتقنتها كرمى لك يا مالك، لأجلك تفوقتُ بها لأمنحك هويّة في وطنك، سأقدّم كل ما بحوزتي من أوراق تثبت أنك ابن عمي غسّان لتنال هويّة مثلنا ونعترف بك، وتصبح ابناً لهذه المدينة.
- لا تهمّني المدينة إطلاقاً، أرغب بالهوية لأرحل من هنا.
- وتتركني وحيدة.
- معك عمر، ثم سترحلين في أقرب فرصة وسيكون الالتفات للخلف مؤلماً يا صبا.
- لا أستطيع الرحيل عنك أبداً، قد حنثتُ بوعدي لعمر، لو عرف أني أنزل إليك كلّ يوم لتشاجر معي وربما رحل عني، أنا لا أستطيع الهروب منك، أنت جزءٌ مني وابن قلبي.
- ربّما مشاعرك ما هي إلا لشعورك بالواجب، أصبحتُ أفهم عمر أكثر منكِ، هو على حق فيما يفعله، آن الأوان أن تفلتي يديك وتنسحبي، فكّي قيدي وابحثي عن ذاتك بعيداً عن سجني، الحياة واسعة يا صبا، هكذا علمتني الكتب.

- عالم الكتب الذي تعيش فيه يختلف هن الواقع، لا تستند إلى كتبٍ خالية من الواقعية وتفكّر أن العالم وردي وسيستقبلك حال خروجك بالورود.
- وما أدراك أنتِ؟ ربما سعادتي تكمن في الخروج من هنا، وربما إن غيّرتُ مكاني أرى الضوء منفذاً لأحلامي.
- تشعرني بأنني سجانة قاسية ذات قلبٌ متجمّد لا يرحم، لا أقدر على إفلاتك.

انسكبت دموعها وهي تردد الكلمة ذاتها:

- لا يمكنني إفلات يدك، لقد عاهدتكَ في أوّل لقاء أنك ستكون في حمايتي، لم أدعك تتألّم أو ترتجف برداً، كنتُ أنسحب من غرفتي كما اللصوص لأدفئك من برد يناير، كنتُ أسهر على مداواتك من كل العلل، ولم أطلب منك المقابل، تحديتُ الجميع لئلا يعرفوا عنك شيئاً، وفي النهاية تقول بكل سهولة إن حياتك ستغدو أسهل في الخارج، هذا الخارج المجهول سيكون مليئاً بوحوش البراري، لن تقدر على مواجهتها وحدك.

اقترب منها، فابتعدت عنه، مسحت عبراتها المتوهجة بنار الألم بكفّ يدها، ثم أكملت:

- أعرف أن مأساتك ليست مجرّد قصة تكتب على الجدران، بل حياة متكاملة من ألم ومعاناة، أنا أفهمك حقاً، لقد كنتُ معك منذ معاناتك الأولى.

وقف ونظر إلى النافذة العلوية، وضع يديه في جيبي بنطاله وقال:

- لا أستحقّ هذا الحب منك، إنه أكبر من طاقتي، حبك سيبقيني هنا أعواماً إضافية لن تحتملها روحي، ألا يكفي اثنا عشر عاماً؟

ثم نظر إليها ووقف قبالتها، أردف ودمعاته تود الانسكاب:

- وبعد يا صبا؟ وبعد هذه الأعوام التي خلت، إلى أين سيفضي بي المصير؟ أنتِ لا تفكّرين أبعد من أنفك، ماذا سأفعل حين تتزوجين، قد بلغتُ الآن الثامنة عشرة وأصبحتُ ناضجاً لأعرف ما تفكّرين وما تفعلين، ولكن لا أعرف ما تخفيان عني، إلى متى سأبقى سرّكما العظيم؟ هو يحاول بمختلف الطرق إبعادك عني، وأنتِ تحاولين إطالة البقاء مهما كان الثمن غالياً، وأنا ضائع بينكما، الحياة لا تتم كما نخطط ونقرر، دائماً لها رأي آخر، وإلا لما كنتِ بارعة بحنث العهود معي أو مع عمر.

سكت وجلس على السرير، وأخفض رأسه ووضعه بين يديه كي لا ترى دموع ضعفه، قال بعد صمتٍ امتلأ بضجيج أفكاره دون أن يرفع رأسه:

- أشكرك يا صبا على ما قدمته لي في هذه الأعوام، وأشكر عمر على ما صنعه لأجلي، لكن....

نظر إليها ثم مسح دمعته الخائنة، وقف قبالتها، وضع يده على كتفها وأكمل:

- لكن الآن أقول لكِ دعيني ولا تحملي وزري، اتركيني لندوبي لعلّ الأيام تشفي ما تجرّعته من آلام، لا تحمّليني ما لا طاقة لي به، فلعلّ في الخروج نجاتي.

كان يتحدّث بقلب متألّم، يعلم أن من الصعب العيش خارج حدود القبو لكن لا يريدها أن تعكّر صفو حياتها وتحمل همّه أكثر من ذلك، لا يريد أن يكون أنانياً في حبّها وقد ضحّت من أجل حمايته، يريد لها الراحة في حياتها بعيداً عن مأساته، يشعر أنه نار ستحرقها إن اقتربت، وإن ابتعدت بردت، وإن أطفأتها اختنقت بدخانها، لن تستريح بعيداً عنه وهو كذلك، لكن بقاءه هنا ضرب من المحال، على أحدهما أن يتنازل ويمضي وإن كلّفه المضي عذاب قلبه، على أحدهما أن يبتعد عن الآخر وإن مزّق البعد كليهما. مسحت دموعها بأصابعها المرتجفة وهي ما تزال تستمع إلى هذيان الألم النابع من قلبه المجروح، أكمل برجاء:

- أودّ الهروب من كلّ شيء، لأعيش ما بقي لي من حياة، أرغب بالاستيقاظ على عالم جديد.

أخيراً نطقت بعد أن استجمعت شجاعتها وقالت بحروف ترتجف حزناً:

- ستُهزم عند أوّل معركة، وتصاب بالخيبة، ستكسر ولن يرمم كسرك أحد، لن تكون الحياة عطوفة عليك، سترميك بأثقالها، وكلّما رأتك قادراً عليها رمتك مرّة أخرى، كلّما وقفتَ على قدميك فستجد نفسك راكعاً متوسّلاً النجاة، لا تضع أملك الكبير في الدنيا لأنها أقوى من كلّ آمالك.
- دعيني أجرّب، إما أن أنجح وإما أن أقاوم لأنجو، ليس لدي خيار سوى النهوض كلما سقطت، والآن أسقطيني من على كتفيكِ، أرجوكِ يا صبا.

لم تستطع أن تمنحه وعداً غير قادرة على تنفيذه، تركته لهذيانه وخرجت بدموع منهمرة، وعند الباب مسحتها لئلّا تثير التساؤلات، ارتمت على سريرها، قضمت أظافرها العشرة، لعنت الظروف وغسان، استولى عليها حزن آلم معدتها.

أصبح البيتُ هادئاً، لم يعد هناك ضجيج للأطفال، لقد كبر الصغار وانتشروا يعبثون بهواياتهم، ولم تعد رندة تسأل عنه، فقد نسيته في زحمة أيامها، كبر التوأمان وأصبحا في أول عامٍ في المدرسة الثانوية، وولاء في نهاية المرحلة الإعدادية، وأما الصغيرة آسيا فهي في نهاية المرحلة الابتدائية.

مضت أسابيع وامتنعت صبا عن زيارة مالك منذ ذاك اليوم خشية أن يفاتحها بأمر خروجه، ظلّ عمر يتكفل بأمر طعامه وشرابه، أدرك بحدسه أن هناك خللاً قد حدث بينهما، فالاثنان يسكنهما الوجوم. جلس جوار مالك على السرير، سحب الكتاب منه وألقاه جانباً، ثم سأله بعد لحظات تفنن فيها الاثنان بحفظ ملامح بعضهما جيداً:

- ما بالِ الوجوم يسكنك؟

لم ينظر إليه، بل عاد وسحب الكتاب وفتحه ليكمل القراءة، عاد الآخر وسحب الكتاب منه وألقاه بعيداً، وأعاد السؤال عليه مرّة أخرى، فرد عليه مالك ولكن بسؤال آخر:

- لم منعتَ صبا عني؟
- سأكلّمك بوضوح يا مالك ولن أراوغ، نحن رجلان، أيعقل أن تزورك صبا وأنت رجلٌ تعيش بمفردك؟
- إني أخاف عليها أكثر من نفسي، أتخاف عليها مني وهي من ربّتني؟ لم جعلتها تبتعد عني وأنا في أمسّ الحاجة إليها؟
- ستكون قريباً منها، اصبر قليلاً وسأخرجك من هنا، حينها لن تفترقا.
- وكأنك تمنحني عقاراً مخدّراً، لن تسمح لها بزيارتي وحدها.
- سنزورك معاً.

نظر إلى ملامحه فلم يتراء له شخصاً سيئاً كما العادة، أدرك أنه يغار على محبوبته منه. قال له بعد صمتٍ طويل:

- أتصبح صديقي يا عمر؟

أومأ له برأسه، عانقه الآخر وشدّ من عناقه، انسكبت دمعته، لقد كان عناقاً صادقاً وأوّل مرّة يتذوّق طعم حنان ابن عمه، فأدرك أنه يكنّ له مشاعر أخوّة صادقة.

- أنت ابن عمي ووصية والدك، لن أفلت يدك.
- ابن عمي!!

قالها متعجباً، أول مرة يتذوّق حلاوتها. فسأله ليتأكد أن ما وصله من مشاعر لن تتحوّل مع الأيام:

- أستبقى على عهدك هذا ولن تفلت يدي؟

أومأ برأسه ثم قال:

- مازلتَ ملاكاً نقياً، لن أدع الدنيا تحوّلك إلى شيطان، سأحافظ على نقائك حتى آخر لحظات عمري.

قبّله من جبينه وغادره، استطاع بدهائه أن يشتت انتباهه عن صبا ولا يسأل عنها، سيمنحه ما منحته إياه صبا دون أن يستخدمها بينهما.

ترك عمر الآخر مبتسماً يتذوّق مشاعر الأخوة، نظر إلى النافذة العلوية، سمع صوت التوأمين يتشاجران، تمنى أن يخرج ويحتضنهما ويخبرهما أنه أخوهما الأكبر، لعلّ في عناقهما لذّة أكبر من لذة عناقه لابن عمه.

في غرفة صبا، استند عمر بظهره إلى الحائط ووضع يديه خلف ظهره، ثم قال:

- متى سنتزوج يا صبا، ها قد مرّ عامان على خطوبتنا، لِمَ تتعمّدين التأخير؟

نظرت إليه تتحدّى عينيه الراجيتين المتألّمتين، وقالت:

- ليس قبل أن اطمئن على مالك.
- لن أتركه يا صبا، سأظل جانبه ونزوره معاً في مسكنه الجديد.
- من سيطعمه ويعتني به، افهم يا عمر أن مالك ليس حيواناً لنهمله، إنه ابني، ربيّته واعتنيتُ به مذ كان في السادسة والآن تريدني أن أزف إليك وأتركه وهو لا يعرف أحداً سوانا، كيف سيتدبّر أمره إلى أن نأتي ونخرجه إلى مسكنه، ربّما في هذه الأيام القليلة يموت جوعاً.
- ومن أخبرك أني لا أهتم به؟

اقترب وجلس جوارها على السرير، ثم أردف:

- لن أتركه ليس كرمى لكِ، لكنه ابن عمي من لحمي ودمي وأنا أولى به منك، في عروقه تجري دمائي، إضافة إلى أنه وصية عمي، لن أدعه يكمل ما بقي له من حياته بأسى، لذلك سأظلّ له ظهراً وسنداً. لكن لا يسعنا أن نفعل أكثر من طاقتنا، يجب علينا أن نسير خطوة في دربنا، فالحرب أصبحت وشيكة، وبين ليلة وضحاها ستندلع وهذا ما يخشاه الجميع، إن قامت الحرب فستقف جميع الأحلام.
- اطمئن عليه أولاً، ألستَ الرجل؟ فعليك إنقاذه وبعدها أكون لك كما تريد.

ظلا على هذا الحال أشهراً عديدة ما بين القبول والرفض حتى اندلعت الحرب وسيطرت على المدينة سحابة الموت، جهز عمر الغرفة التي اقتناها لمالك بأثاثٍ يناسبه، واتفق وإيّاها على حفلِ زفاف صغير في الدار بسبب الحرب، وطلب من رجلٍ غريبٍ عن الحي أن يساعده في أخذ مالك إلى تلك الغرفة عند وجود الجميع في صوان الدار وحين يرى أن المدخل الخلفي للدار فارغاً.

لكن القدر دائماً له رأي آخر لا يشبه أحلامنا، فعندما كان عمر يراقصها مع أصوات التصفيق والأغاني الشعبية، سقطت القذائف تباعاً واندلعت النيران في الأرجاء، كلّهم بحثوا عن صغارهم، صرخ الجميع فزعين، بكى الأطفال، شحبت الوجوه، ساد الوجوم، سكتت الأغاني، تفجّرت الدماء، صمت الحفل،

وهرب الجميع إلى حطام منازلهم يبحثون عن مقتنيات ثمينة ليأخذوها ويهربون من هذا الجحيم، ركض أصحاب الدار إلى غرفهم ليرتّبوا أغراضهم ويرحلوا، فلم يعد منزلهم صالحاً للسكن في هذا الحي الخرب.

تصاعدت ألسنة اللهب وضجّ الحي بأصوات الهاربين الباحثين بين الركام عن حطام أحلامهم، سقط الشهداء بأرقام دون أسماء، دون هوية، لا يعرف المقتول من أي سلاح أطلقت النار عليه.

انتهى حفل الزفاف بكارثة كبرى، خرجت بثوبها الأبيض وبوجه شاحب فزع، لكن قلبها ما نوى الخروج، فجزء من روحها يجبرها على البقاء، وجدها عمر ساكنة هادئة وكأن أصوات الدمار قد غيّبتها، اعتقد أنها مصدومة من أزيز المدافع وأصوات الصواريخ، هزّها بعنف لتستجيب له، فقالت بشرود وألم:

- مالك.
- ما به.
- ظلّ في الداخل، ذاك الجدار قد سقط وسدّ مدخل القبو.

بعدها أيقنت حجم المصيبة، فوليد قلبها لم يخرج، صرخت بانهيار:

- مالك يا عمر؟! ظلّ في الداخل.

وقفت والدتها تسألها عن هذيانها باسم هذا المالك، أدرك عمر أن الأمر سينكشف والوقت سيطول هنا، لم يعد حليفهم الانتظار، فحافة الموت قد اقتربت من الجميع، همس في أذنها:

- مالك بخير، أخرجوه ونحن في الحفلة، إنه في غرفته الآن.

الفصل الثانـي

عودة إلى الوقت الحاضر

نزل مالك إلى القبو، حمل لفافة تبغه ونفث دخانها بوجه الطبيب، أشاح ذاك وجهه عنه، ثمّ قال:

- لا أرى رجلاً لئيماً ينكر المعروف سواك.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وردّ عليه:

- في كلّ مرّة آتي إليك تكرر الجملة ذاتها، ألا تحفظ سواها؟
- لأنني في كلّ مرّة ألتمس الجانب الطيّب فيك، لكن داخلك مع الأسف مليء بالسواد.

قهقه مالك عالياً، ثم رمى عقب لفافة التبغ وأطفأها بحذائه، ثمّ قال:

- أيئستَ باكراً أيها الطبيب؟ مازال لديكَ أعوام عديدة تقضيها هنا، لم أفكر بعد في إطلاق سراحك.

سكتَ هنيهة ثم أردف وهو يحكّ ذقنه:

- ما رأيك أن نجعلها اثني عشر عاماً؟ كطفولتي مثلاً.
- وما دخلي بك؟ أجئتَ لتُخرج عقدَك عليّ؟ ما ذنبي أنا فيما حصل لك.
- أنتَ الذنب الأكبر في حياتي، قذارتك تماثل قذارة غسّان، كلاكما يحمل في دمه خبث البشرية جمعاء.
- ليتني ما تعثّرتُ بك وما جعلتك تمشي أمام الناس فخوراً بمنظرك، وحدي من صنع لك قيمة تجعلك تمشي برأسٍ مرفوع، لولاي لكنتَ ماتزال في حجرك تهرب من سخرية الناس، تخفي وجهك بوشاح لئلّا يراك أحدهم.
- فعلتها لذاتك، لتنجح وتكبر على حساب روحي وجسدي وقلبي، كانت صبا على حق حين عاندتها لأكتشف الحياة بعيداً عن قلبها، فقابلتُ قساة قلبٍ لا يعرفون معنى الرحمة والإحسان، لقد كانت تسعى لتحضير أوراقي ليعترف بي وطنك، فعاندتنا الحرب واشتعلت قبل أوانها، وخسرتُ آخر أحلامي، وحين حاولتُ النهوض مجدداً أتيتَ وجعلتني محطّة سخرية للجميع، سرتُ معك وكأنني حيوان في سيرك، جعلتني أيقونة للضحك، وفي النهاية تمنّ عليّ بأنّك جملتني، ليتك يا جمال ابتعدتَ عن طريقي وما اقتربت.

- حين التقيتكَ كنت ضعيفاً ولا تعرف طريقاً للقوة، أيمكنك أن تنكر أنك صنعت في قصري غرفة عمليات لحربك القذرة، ومن مالي اشتريتَ أسلحة لتحارب وطناً أعزل، هذا وطنك الذي ولدتَ فيه وكبرت من خيراته.

تمشّى في الغرفة ويداه في جيبي بنطاله، صمت فترةً قصيرةً يفكّر بما سيقول، وبعدها بدّد الصمت بقوله:

- لم أولد في هذا الوطن، وكنت آكل فتات خيراته، لطالما كنتُ صفراً على الشمال وحرفاً ساكناً لا قيمة له، في طفولتي البعيدة كنتُ أعيش في غرفة صغيرة، ثم كبرتْ هذه الغرفة، أتذكّر جيداً أني لم أسرق ولم أخبّئ في جيبي مال لغيري، لم أقتل أحدهم ومع ذلك طال سجني اثني عشر عاماً دون أن أقترف ذنباً، الآن هناك من يَقتل باسم وطنه وبعد انتهاء الحرب نجدهم قد أعلنوه بطلاً، وهناك من يموت فداء وطنه ونجدهم قد نسوا ذكره، شعارات هذا الوطن كثيرة، لا يموت في الحرب إلا الفقراء، والأغنياء يكدّسون أموال الفقراء غنائم حرب.
- كأنّك تتحدّث عن نفسك، ها قد أصبحتَ ثرياً بفعل الحرب وزادت أموالك أضعافاً.

- لأنني جرّبتُ نار الفقر فأحرقتني، لذلك سرقتُ فرصتي من الحياة لأكون سبباً رئيسياً في إطفائها.
- ومتى ستطفئها؟
- ليس قبل أن تبرد نار قلبي.

صرخ الطبيب بوجهه:

- وأنا، إلى متى سأبقى هنا؟ أطلق سراحي واتركني وشأني، وسأغادر المدينة ولن تعرف لدربي سبيلاً، فكّ قيدي أرجوك، لي أسرة بحاجة لي.
- أسرة! إنها كلمة دافئة.
- كما الوطن، كلتاهما دافئتان.
- أنا لا أملك أسرة تخاف علي.

ولكن سرعان ما تذكّر سارة، فقال:

- ربما ستقلق علي سارة، أنا لي أسرة صغيرة مثلك، سارة هي أسرتي.

تركه ومشى وظلّ ذاك يناديه بصوتٍ عالٍ:

- لا ترحل، فكّ قيدي، أرجوك يا مالك.

ظلّ يصرخ وينادي ولا مجيبَ لندائه وكأنّه في عالمٍ آخر، خرج مالك إلى سارة وعانقها عناق المحب، نظرت إليه دهشة من تصرّفه، فقال لها:

– أنتِ أسرتي يا سارة، لا تفلتي يدك من يدي، لا تكوني مثلهما.

قبل عشرة أعوام

كذب من قال إن ذائقي طعم الحروب مع الأيام سيعتادونها، لم يعتد أهل المدينة البيوت المهدّمة، أصوات الطائرات، حفظ أماكن القنّاصة وتجنّبها، الخطف، القصص التي لا تنتهي عن الاغتيالات، الانفجارات والمظاهرات المنددة بالحرب وصيحات أوقفوا القتل من المحايدين.

المشاهد تتكرر في روتين يومي، العائدون من الجبهة والمنطلقون إليها، ثقبٌ في هذه النافذة، فتحة في ذاك السقف، بناء ساجدٌ هنا، وآخر راكع هناك، الدفاع المدني يبحث يومياً عن ناجين من تحت الركام والأهالي ينتظرون أن يكون من يخصّهم من الناجين، مع كلّ جثّة تُستخرج يأملون ألا تكون لفردٍ من عائلاتهم، وتستمرّ الحكاية وطفلٌ عاري القدمين يسأل "متى تنتهي

الحرب؟" الأسلحة تجوب الشوارع، والحواجز العشوائية كثرت في الليل والنهار.

أصبح الموت عادة، هتاف المظاهرات، الخوف، الشجاعة، رائحة الموت، الصراخ، نوبات الفزع والهلع، الألم، عويل النساء، نحيب الأطفال، أزيز الرصاص، كلّها صارت روتيناً يومياً لأهل المدينة.

مازالت صبا عالقة في ذاك اليوم، حين استيقظت صباحاً على صوت المدافع، جلست تتوسّل لعمر أن يذهب بها إلى مالك، ظلّت تلح عليه إلى وقت الظهيرة، وافق على مضض ليتهرّب من إلحاحها، كانت الصدمة كبيرة عليها فالغرفة فارغة إلا من أثاثٍ عتيق.

جثت على ركبتيها، انتحبت بشدّة، انهارت في أحضان عمر والآخر يحاول تهدئتها، لقد خذلتهُ مجدداً، ظلّت تردد هذه الكلمة وكأنها تهذي بها، حنثت بوعدها مجدداً، وقفت ونظرت إلى عمر تستجديه بعينيها أن يبحث عنه، لكنه خذلها حين نظر أرضاً وكأنه يتأسّف لها، تركته وركضت إلى الحي القديم، ركض خلفها، فمازالت القذائف هناك تدكّ بيوت الحي، لم تأبه لصراخه لتتوقّف، كل ما كان يشغل باله رفيق دربها، ما حلّ به. تشعر أنه لم يمت، فمازال قلبها ينبض ولولا ذلك لتوقّف، اثنا عشرة عاماً وهي تخاف عليه من الأذى، فطاله الأذى وهي واقفة تشاهد الجدار يهبط أمامها، وصلت قرب البيت، فرأت رجلاً يطلق النار عشوائياً ويبكي بقهر، وبيده الأخرى يحمل جثّة

لشابٍ صغير، وقفت خلفه لئلّا تطالها نيرانه، إنه جارهم أبو زياد وهذا ابنه الوحيد، لم يكن عدوه يوماً، يعرف عنه ما لا يعرفه أحد، يعرف اسمه وكل ما يخصّه، لقد عاش في كنفه عمراً، لكنّ الوطن وقف حائلاً بينهما، أشفقت صبا على دموعه البائسة وعلى شاب كان وقوداً لحربٍ لا تخصّه، أمسك عمر يدها وهي شاردة في جارهم وساقها خلفه إلى البيت الذي كان بابه مفتوحاً كعادته للجميع، قالت بألم:

- كنتُ سأسألك من سيفتح لنا باب البيت؟
- مع الأسف جميع البيوت أبوابها مشّرعة، لكن لا أحد يقدر على دخولها.

سارت إلى القبو وحين همّت بالدخول لم تستطع فمازال الجدار واقعاً، لكن هناك ثغرة متوسّطة الحجم في إمكان أحدهم المرور خلالها، استطاع عمر التسلل عبرها، استغرق دقائق حسبتها صبا ساعات، فأسرعت ودخلت خلفه، صاح فيها موبّخاً:

- أغبية أنتِ؟ ماذا لو تهدّم الجدار كليّاً، من سيعرف عنواننا؟ من سينقذنا؟

لم تسمعه، أو تجاهلته عمداً، وقفت تحدّق في كلّ الاتجاهات، مالك لم يعد هنا، جثت على ركبتيها وبكت، تأمّلت ما كتبه على الجدران، وقفت وأمسكت

القلم الذي كان دائماً يكتب به، وخطّت بألم على الجدران جوار سريره (ليلة البارحة كانت قاسية، زارني فيها أرقٌ لعينٌ، التهمني صداع شرس، فكان يدقّ في رأسي كالمطرقة، غرقتُ في بؤسي وأنا أفكّر في حالك والدموع ملأت جفني، تمنيتُ لو لم أخذلك مجدداً، كلما غفت عيناي استيقظتُ بهلع شديد، أجبرتُ على ترك بيت العائلة، على تركك أنت، أنا لم أفلت يدك، بل يداي تألّمتا فأرخيتهما قليلاً فتهتَ عني، أخشى أن تبتلعك الأزقّة المرهقة وشوارع المدينة فلا تقوى على النهوض بعدها، سأفتّش عنك حتى أجدك، عدني أن تعود إليّ قوياً، أتمنّى ألا يحوّلك صخب المدينة إلى شيطان، ابق ملاكاً يا مالك). وضعت القلم وتسللت عبر الفتحة هي وعمر، منذ هذه اللحظة لم تعد إلى البيت الكبير، ستبحثُ عنه إلى أن تجده.

أفاقت من ذكرياتها على صوت طفلها الصغير يوسف، حملته وناولته ثديها لينهل منه، رزقها الله بطفل جميل، لكم تمنّت أن تكمل سعادتها في عثورها على طفلها الآخر، مازالت تعدّ نفسها أمه ومازال يعدّها حبّه وغرامه.

ارتمى عمر على الأريكة جوارها، ربت على وجنتَي صغيره يلاعبه، نظر إليها بألم، ما زالت إلى الآن تناظره بعتاب، أشاح وجهه كي لا يتشاجر وإياها، فقالت:

- إنه لشيء مرير أن يحنّ الإنسان إلى شيء قريب منه لكنه بعيد.
- الجميع يا صبا بحثوا عنه بعد أن عرفوا الحكاية، لكن لا أثر له.

انسكبت دمعة من عينيها، لا تستطيع إخباره أنها اشتاقت أن تضع رأسها على كتف مالك وتثرثر له كما اعتادت، الوحيد الذي لا تتحفّظ معه، تخبره بما يجول في خاطرها، عمر لا يفهمها كمالك، قالت له:

- في روحي فراغ لا يمكن ملؤه بكلمات العزاء، إنه فراغ يعبّر عن الفقدان ولن يعوّض مكانَه أحدٌ.

هبّ واقفاً صارخاً في وجهها:

- تجاوزتِ حدود الأدب يا صبا، ما هذا الهراء الذي تتفوّهين به؟
- أيجب علي إخفاء جروحي العميقة تحت قناع اللامبالاة، لن أغفر لي تشتّته وتخبّطه خلال هذين العامين، كان إن استيقظ فزعاً يجدني جواره، وإن داهمه المرض أكون جواره، كدتُ أموت حين طلب مني الخروج من مأمنه.
- والعصفور الآن خرج من قفصه، أحسنتِ يا زوجتي العزيزة، كيف تكذبين علي بهذا الأمر، مع أنني منعتك عن زيارته مراراً وتكراراً.
- لِمَ لا تفهم أنه بمثابة ابني، أنا من ربيّته، لا يمكنني الحديث عنه كشيء عابر، لطالما كنتُ الضوء لطريقه، اثنا عشر عاماً مرّت ولم ينسَ يد أمه التي أفلتها، ظل طوال هذه الأعوام يردد على مسامعي إحساسه بالضياع، فكررتُ فعلتها، أظنني قتلته حينها.

رمقها بنظرة عتاب، وغادر البيت كله لعلّه يهدأ من فورة غضبه.

.....

في هذين العامين تغيّر الكثير، فقد مات العم وليد _والد ولاء_، لم يكن له دخلٌ في هذه الحرب، لكن صاده قناصٌ لعين وهو في طريقه إلى عمله، شأنه شأن الكثيرين، لم تُنصب له خيمة عزاء وتلقّوا عزاءه على الهاتف نُشرت نعوته في مواقع التواصل الاجتماعي، فالتجمعات ممنوعة لئلّا تُستهدف، مازالت المدينة تفوح منها رائحة الموت.

ومن حظّ ياسمين والدة ولاء أنها استطاعت أخذ آلة الخياطة معها، بدأت تخيط أثواب النساء لتنفق على صغيرتها التي كبرت وأصبحت في المرحلة الثانوية.

سعيدة بحياتها، راضية بما تمنحه الحياة لها، رغم الحرب والدمار ومآسي أيامها إلا أن إعجاب مجد بها ومصارحتها بحقيقة إعجابه حوّل أيامها لربيع مزهر، فرفرف القلب له، قال لها:

- حينما تنتهي الحرب سنتزوج.
- لكنني مازلتُ في مراحل الدراسة.
- أتعتقدين أن هذه الحرب ستنتهي في عامٍ أو عامين؟ ألا ترين أنها كلّما انطفأت أشعلوها، لا يريدونها أن تنتهي.

- لِم؟ إنهم يرددون كلّ ليلة نموت ونحيا الوطن، لِم يقضون عليه إذن؟
- لأنهم مستفيدون من ثروات الحرب، كلّما طالت امتلأت جيوبهم بالدراهم، يسارعون لسرقة معونة الفقراء ومع ذلك لا تؤذيهم نار الحرب لأنهم جعلونا وقوداً لها.
- وهم، ألا تصيبهم نفحة من نيرانها؟
- لا أعتقد، فهم جميعاً خارج حدود المدينة.
- أتمنى لو سمعوا تنهيدة أمي حينما تغشاها الوحدة، لطالما عاهدتها ألا يصيبني أذى، ومع ذلك تخشى ألا أعود إليها ذات يوم، لطالما تساءلتُ لِم أبناء الفقراء هم الشهداء مع أنهم لا يملكون شبراً على هذه الأرض ويموتون فداءً للقمة العيش.

ابتسم بمرارة وقال:

- كبرتِ يا ولاء وأصبحتِ تحللين المشاهد السياسية.

ضحكت في استحياء وقالت:

- هذا الكلام لا يخصّني، سمعته البارحة من التلفاز، أحياناً أحاول فهم السبب الذي أشعل الحرب ونحن لم يكن ينقصنا شيء، لقد كنا نعيش في سعادة ورخاء.

- ستكبرين وتعرفين حل جميع الألغاز، ستعرفين أننا نقاتل لنعيد لشعبنا كرامته وعزّته، لنكبر في وطنٍ نملكه ولسنا ضيوفاً على أراضيه.

ابتسمت له، حمل بندقيته على كتفه وحين همّ بالرحيل، سألته:

- لم ابتعدت عن درب يزن؟ إنه يقاتل في سبيل الدفاع عن المدينة.
- ونحن ندافع عنها في وجوههم، المدينة لنا ونحن من خطّ خارطتها، سنحمها من كلّ ما يدنّسها.
- وماذا لو اجتمعتما على جبهة قتال واحدة! أيعقل أن ترفع سلاحك وتوجهه نحو صدر أخيك؟ لقد تشاركتما الرحم والمخاض والحليب ذاته.

أشاح وجهه عنها، فأكملت وهي تدرك أنها أوجعته:

- لا أطلب منك إلا أن تعيد سلاحك إلى كتفك إن واجهته في ميدان ولو كان السبّاق، لا تكرِّر الخطيئة الأولى على هذه الأرض.

ومن جهة أخرى وفي مكان آخر كانت رندة تتوسّل إلى يزن ألا يرفع سلاحه في وجه أخيه، تظنّ أن عدالة القدر هي ما جعلتهما في صفين متناقضين بسبب عدم اعترافها بمالك:

- أرجوك يا يزن، لا تدع رصاصتك تقتل أخاك، لا تقتلني مرّتين، تراجع خطوة إلى الخلف كلّما واجهته في معركة حتى تتأكّد أنك تسير في درب الصواب.
- أتريدين مني أن أفرّ من هذه المعركة، لستُ جباناً لأفعلها، هو المخطئ، ما كان عليه أن يقف في صف المتخاذلين الجبناء، وحدهم من دمّروا المدينة وسعوا جاهدين إلى فنائها، لن أحرّك ساكناً وأراه يقتل منا الواحد تلو الآخر، لن أقف مكتوف الأيدي وهو يدعو الناس إلى تظاهرات كاذبة.

نفض يد والدته وغادرها، تركها تبكي وهي تدعو الله أن يحمي ولديها وألا يقربهما الأذى، وألا تتحسّر على فراق أحدهما.

.....

ضحك أشرف والد عمر وهو يرى الأسلحة التي تمّ استيرادها الآن، سيوزّعها على جميع الأطراف بالتساوي، نادى مساعده وأمره بتوزيعها.

مرّ عامان وهو يرسل أسلحة للمدينة، يريد الاستيلاء على المدينة والسيطرة على مواردها، منحهم أموالاً طائلة، فكثر عددهم إذ جنّد في الجيش الآلاف من الشباب، لقد أشبعهم وملأ بطونهم بالطيّبات وبيوتهم بالثروات، وسرعان ما امتلأت المصارف بأموالهم، ومنحهم بيوت المدينة لسرقة محتواها تحت ما

يسمّى "غنائم حرب" وهم ينادون الجميع للانضمام إليهم، فوحدهم سيحملون راية النصر.

لم تسأله زوجته جمانة "من أين لك هذا؟" بل أعجبتها حياة الثراء، استطاع شراء منزل فخم بمدينة أخرى، عاش فيه مع زوجته وابنته آسيا.

أما عمر فلم يسأل والده عن أفعاله، أدرك بفطنة رجل أن والده ليس بهيّن فلم يعاتبه، لكنه سأله سؤالاً واحداً:

- ألا تخشى أن تصيب قلبي رصاصةٌ من أسلحتك.
- اترك المدينة وارحل إلينا، هنا عائلتك يا عمر.
- أنا ابن هذه المدينة ويسعدني أن أدافع عنها، ارتويتُ من مائها، وأشبعتْ معدتي خضارها، بفضلها تعلّمت ووصلتُ إلى ما أنا عليه، ولن أنكر هذا الفضل، وواجبي يحتّم علي إنقاذها من براثنكم، لن يهنأ أي خائن فيها وسنطردهم منها ونعيدها إلى سيرتها الأولى.
- لن تعيد مدينة تذوّقت طعم الخراب إلى ما كانت عليه.
- سنبنيها من جديد.

أغلق الهاتف بعد أنهى اتصاله، اطمئن فيه عن أحوال عائلته، ووضع سلاحه على كتفه إنذاراً بعدم إنزاله إلا بعد الانتصار.

.....

ظلّ مالك يجوب شوارع المدينة، حافي القدمين، مشعّث الشعر، بالي الثياب، منذ تلك الليلة قبل عامين حين خذلته صبا واستطاع في الفجر أن يتسلل عبر الفتحة وهو مشرّد في أزقة المدينة الخربة، تأمل حينها البيت الكبير وشجرة التين وأرجوحتها، تمنّى أن يتذوّق ثمارها من على الشجرة، لم تبخل عليه صبا، لكنه تمنى أن يكون موفور الحظ كأخويه، دارَ حول البحيرة دورات عدّة، طالع نافذة غرفته الصغيرة، دار بنظره إلى البيت الكبير، أول مرّة يراه بهذا الكبر، فيه غرف كثيرة وضاقت به أرضه فاتسع له القبو، ضحك بصوتٍ عالٍ، وقال صارخاً رافعاً يديه حول السماء:

– أنا الآن حر، حر أنا الآن، أصبحتُ طيراً شريداً لا تليق بي السجون، سأواجه الحياة، بأملٍ وإرادة، لن أضعف إطلاقاً.

أفاق من ذاكرته، فالحياة أهدرت كرامته وسحقت روحه وداست على قلبه، ركض إليه حارس الحديقة وبيده عصا، فهو ينهره كلّما رآه على مقعد في الحديقة، هرب منه وظلّ يركض حتى اختفى الحارس، خرج من الحديقة، اجتمع حوله الصبية يسخرون منه وينعتونه بالمتوحش، القذر، الشيطان، المسخ وقبيح المنظر.

هرب منهم إلى زقاق آخر، اقترب من بقالة صغيرة، وقف يتأمل ما لذ وطاب، لم يأكل شيئاً منذ الصباح ومعدته أطلقت صفيراً عالياً، نظر إليه البائع شزراً وعاد إلى دكانه، اقترب قليلاً وسرق كيساً من الكعك، إنه كبير وسيشبع معدته أياماً، لم يره البائع، لكنه خاف كثيراً معتقداً أنه رآه، ظل يركض في الحارات الضيقة، حتى وصل إلى حارة صغيرة، جلس أرضاً يلهث من التعب وفتح الكيس، بدأ يأكل بيديه القذرتين.

<u>عودة إلى الوقت الحاضر</u>

اقترب مالك من صبا، وجدها تجلس أمام البحيرة، فقال:

- وكأن الهروب إلى هنا أصبح ملاذك الآمن؟

نظرت إليه وقالت:

- أقرأتَ ما كتبته لك؟
- أقرأتِ ما كتبته لك؟
- لا تبادل سؤالي بسؤال، أجب عن سؤالي أوّلاً.

- كل خذلان خذلتني إياه كتبته على تلك الجدران، ما كتبته قد قرأته مرّات عدّة لأشعر بما كنتِ تشعرين وأنتِ تخطّين أعذارك بيدٍ ترتجف ألماً.
- كيف يمكن أن أشرح لك أني لم أكن أعرف أنك في الداخل، أنا مستنزفة يا مالك، أحتاج إلى كتفك لأستند فأرمّم ما أحدثته الحرب في داخلي، لم أعد قادرة على الاستمرار أكثر من ذلك، مرّت أعوام وأنا أفتّش عنك في الأزقة الضيّقة، حتى عمر ما ملّ من البحث عنك يوماً.
- تشعرينني بأنني لم أكن مرئياً، المدينة صغيرة يا صبا على أن أختفي دون أن نلتقي مجدداً، كان سيجمعنا لقاء مصادفة، لكن هناك من تعمّد إخفاء الصدف لئلّا نلتقي.
- لا أظن ما تظنّه أنت، عمر يحبّك ويكنّ لك مشاعر أخوة.
- لذلك تعمد إخفاء آثاري عشرة أعوام، لا عاماً أو عامين يا صبا، بل دهراً كاملاً.
- لا تسيء الظن فيه، أنت لا تعرف شيئاً.
- في الوقت الذي كان الجميع يفتّش عن حلمه كنتُ أفتش عن مكانٍ يسعني، لكني لم أجده، في هذه الحرب لم أطلب وطناً، بل ملجأً آمناً يكفيني خبث البشر، الليالي كانت قاسية كزوجة أب لا ترحم،

لم يهدئ روعي ولم يشفِ بؤسي أحد، أدركتُ حينها معنى كلّ حديث دار بيننا.

وقفت تلملم شتات نفسها، ثم قالت:

- لذلك أطلب منك إيقاف الحرب، أنت تنتقم منا يا مالك، من آذاك ترك الحرب وسافر، نحن من بقينا نتنفّس دخاناً سيقتلنا ذات نهار.

نظر إليها وتأمّل عينيها المملوءة دموعاً، مع الأسف لا يستطيع الاقتراب ومسحهما، استعاد رباطة جأشه وقال:

- لستُ من أوقدها، اسألي زوجك يدلّك على من أشعلها، إن كنتُ أزيد إشعالها رغبة في انتقامي، فهو يزيدها رغبةً في ملء جيوبه.
- من يكون؟
- إنه أقرب لكِ مما تتصوّرين، مع الأسف هذه المدينة ترويكم من ماء فاسد لتجعل الأخ يحمل السلاح في وجه أخيه، والآخر يشتري أسلحة لدمار الوطن ولا يسأل حتى عن ابن له يخوض معركته ببسالة دفاعاً عن وطنه.

رحل دون أن يفسّر لها الألغاز، بينما ظلّت شاردة تفكّر في أن تسأل عمر عما قاله، لكنها خافت أن يعرف بترددها إلى هنا للقاء ابن عمّه، لقد جلبت مالكاً لتعرف أن ما تفكّر به صحيح وقد نجحت خطتها مرّةً ثانيةً، مالك لا

ينزل إلى المدينة مرّة إلا وتسكت الحرب كأنها ما كانت، أو كأنها تقيم هدنة مع الشيطان، مالك يراقب تحرّكاتها ويرصدها، يعرف متى تأتي إلى بيت العائلة ومتى تغيب عنه.

قبل سبعة أعوام

ها قد مرّ على هذه الحرب خمسة أعوام، خمسة أعوام على تشرّد مالك، بحث في كل الوجوه عن وجه أمه، أدرك أنه بحاجتها أكثر من حاجته إلى صبا، في هذه الوجوه التي تحملق به كل يوم لم يجد وجه أمه، يريد الارتماء في أحضانها، لن يعاتبها لئلّا تهرب منه، سيعتذر لها، فربّما تسبّب في إيلامها فتخلّت عنه.

أصبح في الثالثة والعشرين ومازال يحمل قلب طفل بريء لا يعرف خبث البشر، وقف أمام حشد من الدفاع المدني، يلملمون أشلاء الشهداء ويضعونها في أكياس، لهؤلاء الشهداء حكايات جميلة وأحلام لطيفة وروايات لم تكتمل، وحدهم أبطالها، الآن أصبحوا أرقاماً ونجوماً تلمع في سماء المدينة، بدأ

كبيرهم بعدّ الأكياس كي يحصيهم، لطالما خاف مالك من الأرقام، فحين تعلّم الحساب كان يكره أن يتعلّم أشياء أكثر من الجمع والطرح.

سار بجوارهم وكأنّ الأمر أصبح عادة روتينية مكررة كل اليوم، لا يدري كم عاماً مضى على تشرّده في هذه المدينة، الحرب قلبتها رأساً على عقب، كان في نعمة وهو تحت الأرض ولم يعرف هذه القيمة إلا حين افتقدها، كان يسير ويردد أن صبا على حق، ما كان عليه أن يتخلّى عن حذره ويغامر، لو ظلّ في الأسفل فهل ستعود صبا إليه؟ وقف في مفترق الحي القديم، لن يدخله ففيه أطفال مذعورون، دمى متساقطة، فيه آثار لعائلات كانت تستمتع بفطورها قبل أن تطالها يد الحرب، فيه ضحكات أخوية، ثرثرة صبا، نصائح عمر وعناقه الوحيد الذي جرّبه مرة في حياته، وفيه أحضان صبا. لم يقربه، أكمل سيره متجاهلاً الحي، جلس بجوار المقهى يستمع إلى تحليلات الناس للحرب، فكان هناك من يردد "أخطر الأوقات هي أوقات النصر وأشدّها شراسة" وهناك من يتساءل "متى ستنتهي الحرب؟" وجوه الناس متعبة، كالحة، مكفهرّة، بائسة، أكمل سيره حتى تعبت قدماه، فجلس على رصيف صغير جوار دكان للألبسة، لكن سرعان ما طرده صاحب الدكان لئلّا يخيف زبائنه، أكمل مشيه حتى وجد مسجداً كبيراً هجره مصلّوه، نام فيه مكوّراً ذاته، كان يخاف الجميع والجميع يخاف منه.

حين يصل إلى أي حاجز يطالبونه بهويته، يقسم لهم أن وطنهم لم يمنحه هوية، يضربونه بأعقاب البنادق ويتركونه والدماء تغسله، يظلّ نائماً مكانه مسجّى بدمائه حتى يبزغ فجرٌ جديد فيطردوه من مكانه ويقسموا أنهم إن رأوه مرّة ثانية فسيقتلونه، صار يتجنّب أماكنهم مرغماً، يهرب إلى أقصى المدينة، يبحث عن مكان آمن يبيت فيه ليلته، وفي النهار يعاود البحث عما يسد رمقه.

في اليوم التالي لآلامه جلس على طرف الشارع، لا يملك شبراً في هذا الوطن ليمدّ قدميه إلى الأمام، اقتربت منه فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، ابتسمت له وجلست جواره، تقاسمت معه فطيرتها، ظلّت صامتة تأكل بنهم، نظر إليها، إنها جميلة بشعرها الغجري وبشرتها الخمرية الناعمة وابتسامتها اللطيفة، ابتسمت مرة أخرى بعد أن أنهت فطيرتها، ظنّها بكماء، إنها لطيفة، في عينيها حنان الكون كصبا، أسندت رأسها على كتفه وبدأت بالنحيب، لم يستطع أن يفهم أفعالها، سألها بهدوء:

– ما الذي آلمك؟

زاد نحيبها، ثم أجابته بحروف متقطّعة:

– فقط ابق هكذا، أريد كتفاً أستند عليه.

إنها تتحدّث إذن، صوتها أيضاً يغلبه الحب والحنان، وعاد يسألها:

- ما الذي ألمّ بكِ، لم كلّ هذا البكاء يا...
- سارة، اسمي سارة.

وبكت كثيراً، أمالت رأسها على كتفه وزاد النحيب.

- وما سبب دموعك يا سارة؟
- قضت الحرب على جميع عائلتي، لم أجد البيت، وكأنّه لم يكن، كانوا يتذمّرون قبل ساعات من جوع نهش بطونهم، حين عدتُ لهم بالطعام لم أجد البيت، ظننتني أخطأتُ الحارة، رجعتُ خطوة للخلف، هذا بيت العم أبا إسماعيل، تقدّمت للأمام وهذا دكان أبا راتب، إذن هنا بيتنا، أجل فأنا أحفظ الطريق جيداً، لكن...

صمتت عن الكلام، خبأت وجهها في يديها وانتحبت كثيراً، ثم أكملت:

- لكن البيت كان كومة من ركام، لا أثر حتّى لباب البيت.
- اهدئي قليلاً، الكل مصاب في هذه الحرب، لستِ وحدك من تعانين.

رمت المناديل الورقية من يدها، وصرخت بيأس:

- نحن فقط من دفع ثمنها، الحرب لم تقتل سوانا، مالنا ولهم، إن أرادوا القتال فلهم الصحراء بطولها وعرضها، وليتركوا المدينة فنحيَ بسلام.

لملم المناديل ووضعهم جانبها، ثم قال:

- هم مشغولون بالدماء ونحن مشغولون بالبقاء، في هذه الحرب ليس هناك امرأة إلا مصابة في أهل بيتها.
- إنهم يكسبون معركتهم بقدر ما يقتلون منا.
- الحياة ستمضي وننسى.
- ستمضي على روحنا، كل الخسائر قابلة للتعويض إلا أن تخسر عائلتك وتبقى الناجي الوحيد.

كان هذا أوّل لقاء بين سارة ومالك، أخذته إلى مسكنٍ بعيد عن أذى الناس، بيتٍ هجره أصحابه فاتخذه المشرّدون سكناً لهم، كانت تثرثر معه كل يومٍ كصبا، لم يسكتها إطلاقاً فهو يهيم بثرثرتهما، عرفت حكايته، نظرت إلى براءته وإلى روحه وقلبه ولم تهتم بوجهه، وهذا ما جعل الدهشة ترتسم على ملامحه، فسألها عن السبب، أجابته بابتسامة لطيفة:

- لأنك ذو روحٍ عظيمة، لم تنفض رأسي حين وضعته على كتفي، تركتني أرمي همومي عليك دون إسكاتي، إن لك روحاً عظيمة وقلباً دافئاً حافِظ عليه من أذى البشر، لا تلوثه بهذه التعقيدات.

سكتت قليلاً ثم نظرت إليه وأكملت:

- ستلتقي ذات يومٍ بصبا وتسألها عن سبب هروبها تلك الليلة.

- تلك الليلة كانت ليلة زفافها، أيعقل أنها فكرت بي ويدها في يد عمر؟
- لا يمكنك الظنّ بها إلا بعد أن تروي لك ما حصل.

.....

جلست ولاء بجوار مجد على كرسي في حديقة عامة، لم تعد تلك الصغيرة، فهي الآن بيدها خاتم خطبتها، وبعد انتهاء الدراسة ستتزوّجه، قالت بألم:

- أسمعت أخبار الحي القديم؟

كان يحشو بندقيته بالرصاص، فأجابها دون أن ينظر إليها:

- لا تهمني أخباره.
- لقد استشهد جارنا العجوز أبو إسحق وخمسة من أحفاده.

لم يرد عليها بكلمة وكأنّ الأمر برمّته لا يعنيه، فأكملت:

- عائلة خالي كلها استشهدت، وعائلة خالتي هجرت المدينة.

أغضبها سكوته، فصرخت في وجهه:

- ألا تسمعني؟ إني أخبرك أن الحي بات عبارة عن كومة من ركام تحتها جثث جيراننا وأقاربنا وأصدقائنا.

ماثلها الصراخ ولكن بحدّة أكبر:

- نحن جميعنا مشاريع شهادة على هذه الأرض، لا نعرف من سيكون دوره في الساعات القادمة؟ ربما أنا، ربما أنتِ، لا تصرخي وتنهاري عند سماع كلمة موت أو دمار، يجب عليكِ الوقوف لتسندي نفسك، بل أنتِ مرغمة على الوقوف لئلّا تقعي، لا نعرف متى ستنتهي الحرب لذلك علينا الابتعاد عن حافة الانهيار، فالوطن بحاجتنا.
- لكن تظلّ فكرة الموت بعيدة عنا، مهما اقترب الموت منا حتى لو رُفع السلاح في وجهك يظل هناك أمل أنك لن تموت بسهولة.
- رائحة الموت تفوح من البيوت منذ أكثر من خمسة أعوام، آن لكِ أن تعتاديها، نحن نرحب بالموت بصدر رحب فعلى الأقل سينقذنا من أذى البشرية، لا شيء يؤذي في هذه الحياة إلا الإنسان.
- أنا لا أخاف على نفسي، بل أخشى خسارة من حولي، أنا الوحيدة بينكم التي فقدت والدها في بداية الحرب، أخشى يا مجد أن تدوم ساعة الحرب طويلاً وحين تنتهي لا نجد إلا جثثاً في الشوارع.
- سيحلّ السلام يوماً حين نحبّ أنفسنا حبّاً حقيقياً، حينها لا حرب ولا خراب ولا دمار.
- سينتشر السلام، وتمطر السماء أزهاراً، هل ستظلّ معي حينها؟

ابتسم لها برقّة أذابتها:

- أعدكِ بذلك.
- حافظ على نفسك إذن، وعدني ألا تلتقي مع يزن في ساحة حربٍ واحدة، لا تفجعا أمكما بواحد منكما.

حين طال صمته وكزته من كتفه تحثّه على الموافقة، تأمل لمعة عينيها وهي تناشده بالموافقة، أومأ لها دون أن يَعِدها لفظياً، لن يقتل أخاه من أجلِ حربٍ هما الخاسران فيها.

.....

جلست صبا جوار عمر وهو يداعب صغيره، ظلّت صامتة قليلاً، ثم سألته:

- إلى متى سنظلّ هكذا؟

نظر إليها وكأنّما انتبه للتو لوجودها جواره، فسألها مستفهماً:

- ماذا تقصدين؟
- أخبرتني مرّة أن أودّع أي مكان لا يسعني، قلتَ لي حينها "ودّعي الأشياء كلما شعرتِ أنها تتأرجح بين يديكِ أو أنها غير قابلة للاستمرار".
- مازلتُ لا أفهم، إلامِ تلمّحين؟

- عد بالتقويم إلى ما قبل ثلاثة أعوام وستفهم مقصدي، ثلاثة أعوام يا عمر وأنت مازلتَ تبتعد عني، (وضعت يدها على صدره) كأن هذا القلب لم يحتونِي يوماً.

أزاح يدها عن قلبه وقال بنبرة عاتبة:

- للأسف يا صبا، في الزمن القديم يقولون "من لم تجد عنده راحة فالبعد عنه راحة" أنت لم تريحي هذا القلب يوماً، مازلتِ تبحثين عن مالك كأنه عاشق لقلبك وليس ابنك كما تدّعين.

تنهد بألم، أغمض عينيه، أخذ نفساً طويلاً، ثم فتحهما وأكمل دون أن ينظر إليها لئلّا يضعف في حال رأى دموعها:

- أشعر أني وحدي خسرتُ الحرب، لا وطن لي ولا حبيبة، وكأنني سفينة فارغة في وسط الميناء، أو قطار في محطّة فارغة لا ينتظره أحد.
- أو تظنني قد خذلتك بذكري لمالك طوال هذه الفترة، إنك تدرك جيداً مقدار حبّك في قلبي، لكن أشعر بواجبي نحو مالك، لو لم يكن في حمايتي ما بحثتُ عنه، لكنني أنا من منعه من الخروج ولم أعرف أن الخطر سيداهمه وهو في المكان الآمن.

أمسكت يده وأكملت:

- صدّقني يا عمر حين أعثر عليه سأوصله بيدي إلى البر الآمن، حينها لن آتي على ذكره مجدداً، سأعهد إلى يزن بحمايته.

تنهد ثم ابتسم ابتسامة متكلّفة، أعطاها ابنهما ونهض إلى غرفته، حملت صغيرها تلاعبه، وتفكيرها في هذين الرجلين، لا تستطيع أن توفّق بينهما وكل واحد فيهما لا يطيق لها الاقتراب من الآخر.

.....

جلست آسيا بجوار والدتها، وهذه الأخيرة تدخّن النرجيلة، سألتها:

- متى سيمكننا العودة إلى المدينة؟
- ليس قبل أن تنتهي الحرب.
- ألم تشتاقي إلى عمر؟ لم تحملي صغيره بعد.
- عمر يؤدّي واجبه هناك، لا يستطيع أن يترك مكانه، ولا يقدر على المجيء إلى هنا.
- إذن دعينا نرجع، لكم اشتقتُ إلى ابنة عمي ولاء.
- وما دخل هذه بعمر؟
- أسنزور عمر دون أن نعرج على بيت عمينا؟
- كفاكِ غباء، أنا لا أدخل بيت ياسمين مهما كلّف الأمر.
- لم يا أمي؟ فزوجة عمي لطيفة وتحبّنا.

- وتعيش بين كومة من القمامة، في حارة عفنة وغرفة قديمة بأثاثٍ بالٍ، وتظن نفسها تجني أرباحاً بترقيعها لأثواب النساء البالية.
- إيجار بيتها رخيص، يكفيها شعور الأمان بين جدرانه الأربعة، إنها تخشى على ابنتها من الخارجين عن القانون، فهذه الحرب جعلت السكارى يمشون في الشوارع ويعتدون على ساكنيها دون خوف من أحد.
- من أين علمتِ بهذه الأخبار؟
- من الأخبار، افتحي التلفاز وستعرفين أخبار مدينتك التي ولدتِ داخل أسوارها.

عودة للوقت الحاضر

خرجت سارة إلى الشرفة، وجدت مالكاً يجلس على كرسي خشبي ويمدّ رجليه على كرسي آخر، استندت بمرفقيها على السور الحديدي، تأملت سحب الدخان الصاعدة من الأبنية، أصوات المدافع أفزعت العصافير فطارت بعيداً، أفاقت من شرودها على صوت مالك يسألها:

- في أي شهرٍ أصبحت يا سارة؟
- في السادس.

صمت ولم يعقّب، كان سؤاله بدافع الفضول ليس إلا، نظرت إليه وقالت:

- ألا تخاف انتقام أهل المدينة منك؟

فتح عينيه ونظر إليها قليلاً، ثم قال:

- أظنك سألتِ هذا السؤال مرّات عدة ومع ذلك لا تخيفني رياحهم وقد واجهتُ عواصفهم بمفردي.
- إن تجاوزتَ سيئاتهم ستصبح رجلاً وقوراً يهابك الجميع ولاسيما حين تسرع للتسوية بين جميع الأطراف، فتنقذ ما يمكن إنقاذه.

وقف جوارها واستند بمرفقيه مثلها، وقال:

- حاولتُ ذلك إذ وصلت إلى عتبة المدينة ثم استدرتُ وعدتُ بخطا ثابتة، لأنني شعرتُ أن الوقت لم يكن مناسباً.
- لكن الدافع يستحق منك طرق الباب بقوة.
- لن يسمعني أحد، في الحروب الأهلية لن يسمع الناس صيحة (أوقفوا القتل).
- أنت عجيب يا مالك، لم أجد رجلاً يحمل التناقضات سواك، لأنك ملاكاً، أنتَ لست بشيطان، أنت..

لم تسعفها كلمات اللغة في البحث عن كلمة مفيدة.

- أنا شيطان يا سارة، وأنتِ ملاك ساقه الله إليّ ليعوّضني عما صنعته بي الدنيا.
- لكن الملاك لا يستطيع أن يحيا مع الشيطان.
- أنتِ لا تقرّين بنهاية شيء يا سارة، ربما الشيطان يتعلّم من الملاك شيئاً جميلاً.
- أتظن ذلك؟

ابتسم لها، فبادلته الابتسامة، جلست على الكرسي، قالت:

- حينها سنكون أسعد عائلة، ألم تقل إني عائلتك وكررتها قبل ذلك مرّات عديدة، سأكون لك عائلة تحتوي آلامك.

- لنعد إلى بداية حديثنا، لم تشعرين أني رجل التناقضات؟
- أشعر أنك مأمون الجانب، متى جالستك في الصباح والمساء وجدتني وقد ارتحلتُ عنك وشعوري بالأمان جوارك يتضاعف، بينما طوال النهار وأطراف الليل أسمعك تعطي الأوامر لقتل أكبر عدد من الناس.
- أنا أخلّص العالم من شرورهم وأطهّر المدينة من رجسهم، احفظي هذا الكلام جيداً.
- نحن بشرٌ يا مالك سواء كنّا بروح ملائكة أو شياطين، فاحذر من شيطانك أن يسيطر عليك فتندم أشدّ الندم قبل أن ترجع إلى ذاك الملاك.

فتح علبة التبغ، حمل واحدة بين أصبعيه، أشعلها، نفث دخانها وتنهد بألم، أيمكن أن يأتي يوماً ويندم على ما يفعله؟ لكنهم لم يتركوا له خياراً آخر، يرغب بتنظيف المدينة من أشرارها، لكن أخيارها هم من يموتون، وأولئك مازالوا يتجوّلون كأسراب النمل داخل المدينة، وأعدادهم تتضاعف كلّ يوم.

قبل أربعة أعوام

لم تعد صبا تأتي على ذكر مالك لئلّا تعكّر صفو حياتها، إذ إن عمر يغير من مجرّد ذكر اسمه، استسلمت للأمر الواقع وخضعت له مرغمة.

ها هي الحرب تدخل عامها التاسع وطفلها يجهّز نفسه للذهاب إلى المدرسة، أعدّت له حقيبته بحزن غشي قلبها، تخشى عليه من قذيفة عمياء لا تعرف هدفها. وقفت قبالة عمر تتوسّل إليه أن يرحلا عن صخب هذه المدينة، لكن كان له رأي آخر يناقض رأيها، صاح بها:

- لن أترك المدينة لهم.
- في الماضي لم أكن أخشى شيئاً، لكن الآن خوفي على طفلي يتضاعف.

نظر إليها بعتاب، إذ شعر أنه لا يعني لها شيئاً وإلا لكانت ذكرته، زفر بصوتٍ عالٍ وقال:

- شئنا أم أبينا، هذه الحرب حربنا والمدينة مدينتنا، لن أتركها وأمضي، آن لكِ أن تعتاديها كما الأخريات من نساء المدينة.

صرختْ في وجهه:

- وما شأني بهنّ، أوائل من هاجروا كانت عائلتك لأنها لم تستطع التأقلم مع نيران الحرب، وتريد مني الاستمرار والصبر، لا أرغب باستنزاف روحي أكثر من ذلك، افهم يا عمر لم أعتد بعد على الهدم (هدم معالمنا، حضارتنا، وطننا، بيوتنا، ذواتنا) ترعبني فكرة أن أموت قبل أن يُبنى الوطن من جديد.
- ألم تعتادي الحرب بعد وقد دخلت عامها التاسع؟
- لا، لم أعتد ولا أرغب بذلك، التعوّد خنوع ولا أريد الامتثال له، لم يعتد أحد من أهل المدينة، فكلّهم في ترقّب لحظة رفع راية النصر.
- إذن انتظريها معي وهللي حين يأتي النصر.
- لا أعتقد، لأننا سنظل صامتين، لا نستطيع أن نفرح وتعيش بيننا عائلات مكلومة.
- هذا قدرنا، قدر مدينتك، لستِ وحدكِ من تعانين، الكل هنا يشاركك نفس الآلام، مازال إلى الآن فيها أربعة ملايين، لم يهاجر منها إلا خمسمئة ألف، كل هؤلاء يعانون مثلك فتأقلمي مع هذه الحياة ريثما تنقضي هذه الأيام.
- لا أستطيع التأقلم على شيء لا أريده، أكبر آلام القلوب تأتي من خسائر لا يمكن تعويضها، لا أريد خسارتكما، فأنا لا شيء دونكما.

- تجاوزي هذا الخوف، لطالما عهدتك قوية يا صبا.

اقترب منها وقبّل جبينها، ثمّ ضمّها إليه وقال مازحاً:

- إن فرّقنا الموت، فلن يكون البحث عن مالك حجة، ستجدينه وتكملين ما بقي لكِ من حياة معه.

ابتعدت عن أحضانه، نظرت إلى ابتسامته وكأنه يقول طرفة سخيفة لا تناسب الوضع الحالي، قالت بحيرة:

- ومن أتى على ذكر مالك؟ لم أعد أذكره مذ أعوام خلت، ولم أعد أطلب منك البحث عنه.
- لكنك يا صبا لازلتِ تتوسّلين يزن كي يفتّش عنه.
- أجل ولا أكذب عليك في هذا الأمر، لأن مشاعر الأخوة رابطتها أقوى من رابطة أبناء العمومة، أعتقد أن يزن لن يتخلّى عنه لأنه شقيقه.
- وأنتِ يا صبا، أريحي القلب المتعب وأصدقيني، أمازال في قلبك؟
- أجل لأنني أمه، أنت لا تعرف معنى الأمومة يا عمر، حملته صغيراً، كنتُ أغسّله، أطعمه وأسهر على راحته، راقبته وهو يكبر أمام عيني، حتى رأيتُ إنجازي تحوّل إلى شابٍ في الثامنة عشرة من عمره، علّمته القراءة والحساب ليكبر ويفخر بنفسه، علّمته

الفضيلة والأخلاق، لم أره يوماً كما تراه أنت، وإن حدث ما تقول فلا يمكنني أن أراه سوى طفلاً لم ينجبه رحمي، أنسيت أنه سرّنا الذي تشاركناه معاً على مدى اثني عشر عاماً؟ مع الأسف لم أكن أعلم أنه سيأتي يوم ونتشاجر من أجله، حميته من الجميع يا عمر، رضيتُ بسجنه أعواماً لئلا تجرحه كلمة، لكنني مع الأسف لم أستطع حمايته منك.

سكتت حين لم تتلقّ سوى الصمت ردّاً على ثرثرتها، وقالت:

- هاك ابنك، خذه إلى المدرسة.

نادت صغيرها كي يصطحبه والده، وحين همّت لتدخل قال لها:

- أنا أثق بكِ يا صبا، ولم أشكَّ يوماً في حبّك لي، ولكن ماذا عن مالك؟ فهو تعلّق بكِ كتعلّق الحبيب بمحبوبه، أتمنى أن تفهمي ما يعنيه كلامي.

قبّلها من جبينها وغادر تاركاً إياها غارقة في ذكرياتها وما كتبه مالك على ذاك الجدار (في زفافك سأكون أول الحاضرين، حين تلبسين الخاتم سأكون أول المهنئين، حينما ترقصين سأكون أول المصفقين، مع الأسف لم أستطع فعل ذلك لأنني مُنِعْتُ من حضور فرحك، خيبة أملي بك جعلتني أكثر صمتاً يا صبا).

ارتدت ثيابها وغادرت إلى عائلتها، لا أحد يفهمها إلا يزن، لكنها حين وصلت وجدت أخواها يتشاجران، ووالدتها وولاء تقفان في المنتصف حائلاً بينهما، تساءلت:

- ما الذي يحدث هنا؟
- لم ينتبه أحد لسؤالها، إذا كان الجواب ظاهراً للعيان، فيزن يرفع سلاحه في وجه مجد، قال له بصوتٍ غاضب:
- إنك أجبن من أن ترفع سلاحك في وجهي، سننظف المدينة من قذارتكم.
- إن استطعت أن تفعلها يا أخي فافعلها، لكن ليس هنا أمام والدتي وخطيبتي وأختي، لا أريد لأحد أن يكرهك، لا أريدهم أن يروك في أبشع صورة، لا أريدهم أن يروني مخضّباً بدمائي والسبب أخي.
- أنت أحقر من هذا الكلام، لا تحدّثني بالعاطفة وأنا لمحتك قبل قليل تذبح الوطن دون أن يرفّ لك جفن.

صرخت رندة ووقفت في وجه مجد قائلة:

- إن أردت قتله فاجعل رصاصتك تخترق جسدي أولاً.

صرخت صبا:

- لا تقتل والدتك مرّتين يا يزن، أنزل سلاحك، عار عليك أن ترفعه في وجه سندك.

ارتجف متذكّراً مشاغبتهما ولعبهما ودورانهما حول شجرة التين والبحيرة، لكن يجب أن يثأر للوطن، ولم يجد إلا أخاه يثأر منه. صاحت والدته مرّة أخرى:

- هيا افعلها وأطلق رصاصتك، ستعيش بعدها لكن دون روح، لن يرتاح ضميرك أبداً.

أبعد مجد والدته قائلاً:

- لستُ أنا من يختبئ خلف ظهر النساء.

اقترب من شقيقه وقال له:

- إن كان موتي سيخمد نيران الحرب فاجعل رصاصتك في صدري، لكن ليس هنا، أنا لا أخشى الموت، كلنا مشاريع شهادة وسنموت يوماً ما، الحرب تحرث كل الشباب ولن تقف عندي وتتركني، لكن يا أخي لا أريد الموت بيدك، هذه اليد التي أمسكتُها مراراً لأعبر الشارع لم تفلتها يوماً، أخبرتنا أمي أنك أكبر مني بعشر دقائق فقط، لكنني حسبتها سنوات وأنا أرمي حمولتي عليك، حملتَ آلامي ولم تعترض.

أمسك يده وأكمل كلامه:

- يدك هذه لطالما مسحت دمعتي وربتت على كتفي، فكيف ستخون عهدها معي وتقضي علي.

نظر إلى ولاء فوجدها تبكي بصمت، اقترب منها ومسح عبراتها، ضمّها إليه بقوّة فكاد أن يهشّم عظامها وكأنه يودّعها الوداع الأبدي، قال لها:

- أرأيتِ لِم أؤجل زواجنا؟ لئلّا تصبحي أرملة في شهور قليلة، لئلّا يحمل رحمك طفلاً يتيماً، أتذكّرك في زحام يومي المملوء بصخب القذائف والرشاشات فأطمئن ويهنأ قلبي كأنني لم أذق المرّ أبداً، أكملي حياتك بالشغف ذاته وأعرفي أن الحب قدرنا، لكن...

وضعت سبابتها على شفتيه قائلة:

- صه، لا تتكلم كأنك على مشارف الموت.

نظرت إلى يزن وكان قد أنزل سلاحه خجلاً من نظرات الجميع، أكملت بحكمة:

- يزن كان غاضباً من ضغوط الحرب والشتات والحيرة التي تكتنفه، لكنه ما كان ليفعلها.

اقتربت من يزن وقالت:

- أليس كذلك يا ابن عمي، لن تقتله أبداً، لن تفقدني إياه، والله للموت أشدّ رحمة من أن تفعلها أنت، كل أعوام الحرب انتهت في ساعة واحدة وفقده سيطلب أعواماً عديدة لننسى، عانقه يا يزن، عانق أخاك وأسعد قلوبنا.

ألقى سلاحه أرضاً وعانقه بشدّة، انسكبت دموعهما والتحما ببعضهما، ربتت رندة على كتف ولاء شاكرة لها هذا الفضل.

فوجئ الجميع حين تركهم مجد ودخل إلى غرفته، غاب فيها بضع دقائق ثم خرج وسلاحه بيده، رماه عند قدم أخيه، نظر الجميع إليه دهشين من تصرّفه الغريب، قال لهم موضّحاً حقيقة ما يفعل:

- هاكَ سلاحي، خذه ودافع عن وطنك، لن أخسرك من أجل هذه الحرب.

رمى الآخر سلاحه دون أن يأخذ سلاح أخيه، ثم عانقه فرحاً وسعادة، قال يزن:

- وأنا سأرمي سلاحي ولن أقتل فيه إنساناً عاش معي على هذه الأرض، سأبقى سندك وظهرك المتين متى احتجتني.

ضحكت رندة وقالت:

- سنشد عضدك بأخيك، أتمنى أن تزال الغمّة ولا يعاد هذا المشهد أبداً.

جلست صبا جوار يزن على حافة الأريكة وقالت:

- بهذه المناسبة العظيمة، ماذا لو أعدتَ البحث عن مالك.
- أخبرتكِ من قبل يا صبا ألا أثر له في المدينة وكأنه..

ثم سكت، فقالت:

- لا، لم يمت، قلبي مازال ينبض، لو مات لتوقّف القلب.

صاح مجد بها:

- تتحدّثين وكأنّك مغرمة به، ماذا دهاكِ يا صبا؟ لو استمع عمر إلى هذيانك لطلّقك بالثلاث، اعقلي يا أختاه وانسي أمر مالك، فلم يجلب لك سوى المصائب.
- ها أنت تتحدّث بلسان عمر وكأنّكما جلستما جلسة وديّة تتباحثان في هذا الأمر، أخبرتكما من قبل أني لا أشعر نحوه إلا بمشاعر الأمومة، لم لا تفهمان إحساسي به، كم مرّة علي أن أعيد على مسامعكما بأنني من ربيته وأطعمته حتى غدا رجلاً، كان ينام في حضني، فكيف أفكّر في قذارة ما تفكّران به، لم أسمح بعناقه مذ أن كان مراهقاً، لم يتجاوز حدوده معي، لقد كان ابناً باراً بي، وعدته

أني سأطلق سراحه حين أؤمّن مسكناً له، لكن في تلك الليلة خرج الأمر عن إرادتي.

مسحت دموعها بكفّ يدها، وقفت لتغادر، أوقفها يزن قائلاً:

– لا تقلقي على مالك يا صبا، سأعاود البحث عنه ليلتئم شمل العائلة ويستريح والدي في قبره.

ابتسمت له قائلة:

– لذلك لم أجرؤ أن أطلب طلبي هذا إلا منك لأنك وحدك من تفهمني دون أن تسيء الظن بي.

غادرتهم دون أن تنظر خلفها، جلست ولاء بجوار مجد سعيدة لأنه تخلّى عن السلاح ولن يكون له دور في هذه الحرب إيجابياً أو سلبياً.

.....

كبرت آسيا وأصبحت في عمر العشرين، لم يعجبها ثراء والدها الفاحش، لطالما تساءلت عن عمله الغامض لكنها تُصدّ من أوّل سؤال، لكن راق لها في الأمر أنها تبعث المال لابنة عمّها ولاء كل شهر، لم تكن جمانة على علم بما تفعله ابنتها، أما أشرف فلم يمانع أبداً لأنها ابنة أخيه الراحل، حين علمت جمانة بالأمر صدفة منعت المال عن آسيا، لكن الأخيرة لم تيئس بل

ازدادت إصراراً، فكانت تأخذ الأموال من والدها وترسلها بعلمه كأنه يسترضيها لترضى عن عمله غير الشرعي.

الأهم من كل ذلك ما يشغل بالها أكثر من إرسال الأموال إلى ابنة عمّها، وهي حياتها هنا والعودة إلى مدينتها بأسرع ما يمكن، تكره هذه الغربة فلا شيء فيها يدعو إلى السرور، توسّلت لوالدها كي يدعها ترحل لكنه قابل توسّلاتها بالرفض القاطع، توسّلت لعمر أن يساعدها في هذا الأمر لكنه رفض تلبية طلبها، كلهم يخبرونها أنها بأمان، لكنها لا تريد أماناً خارج حدود مدينتها.

هي غريبة هنا، لا أصدقاء لديها، قلوب الناس جافة ولم تجد الرأفة فيها، كلهم يجرون خلفها لأجل مالها وحين تنقص عليهم درهماً ينعتونها باللاجئة المتطفّلة على بلادهم، إنها خائنة ولولا ذلك لظلّت في مدينتها، لو كان فيها خير لما تركت خراب مدينتها وعاشت ميسورة الحال في الخارج، كلمات كثيرة جارحة وكأن الأمر بيدها، لو كان بيدها لظلّت في مكانها صامدة كولاء، فهذه الأخيرة دائماً ما تخبرها عن الحرب بحماسة منقطعة النظير، لقد أصبحت تفرّق بين الأصوات الناجمة عن انفجارات والأصوات الناجمة عن الصواريخ، تخبرها أيضاً أنها أصبحت خبيرة في تحديد اتجاه الصاروخ، تتمنّى آسيا أن تعود إليها وتستمتع مثلها بهذه الحرب، لكن آسيا لم تجرّب نارها لذلك تجد في حديث ولاء متعة وتجد هذه الحرب مسلية وليست خطيرة.

.....

علّمت سارة مالكاً بيع المناديل الورقية، لكنه لقي صعوبة في البيع، بعضهم أشفق عليه فمنحه مالاً، وبعضهم استهزأ به وتنمّر عليه بسبب قبح وجهه، وبعضهم ركله بقدمه محتقراً إياه، ومع ذلك ظلّ صامداً لا يريد أن يخذل سارة.

مرّت أربعة أعوام تعلّم خلالها من سارة الكثير مع أنها تصغره بأعوام عدّة، فخبرتها في الحياة أضعاف خبرته، لقد أصبح في السابعة والعشرين وهي مازالت في التاسعة عشرة، لقد نضجت وأضحت أكثر جمالاً مما كانت.

لقد تغيّر الكثير في هذه الأعوام القليلة ومنها عقله إذ لم يعد محصوراً بصبا بل أصبح أكثر انفتاحاً، لقد فهم العالم الجديد وفي إمكانه مجاراته الآن.

جلس وإياها على آخر درجة في المسكن، كان يتمنى أن يصعد إلى السطح لكنها منعته لوجود القنّاصة على أسطح الأبنية، فاكتفى بالجلوس على الدرج داخل المسكن، صبّت له كأساً من الشاي، قدّمته له، ظلّ شارداً، خمّنت أنه مازال يحوم حول ماضيه، فسألته:

- ألهذه الدرجة كان ماضيك شاقاً عليك؟
- لا أعرف يا سارة، أشعر أن أشباح الماضي تطاردني وستبقى تذكّرني بأحداثه.

– سيؤدي تفكيرك إلى بالبقاء حبيساً في ماضيك، واصل السير نحو غايتك ولا تتعرقل في صخور الماضي، فتقع في ثغراته، وربما لن تنجو منه.

سكتت قليلاً، ارتشفت من فنجان الشاي، ثمّ قالت:

– لن يأتي أحد لإنقاذنا، نحن لا نعني لهم شيئاً، حياتنا مسؤوليتنا نحن.

مرّت الأيام في أسى الحرب حتى جاء ذاك اليوم الذي كان مالك عند الإشارة يبيع المناديل الورقية للمارة تحت لهيب شمس يوليو، شعر أن فروة رأسه قد احترقت واشتمّ رائحة شعره المحترق، ظلّ ساعات على هذه الحال حتى تعبت قدماه وما عاد يحتمل الوقوف، فجلس على الرصيف يتأمّل المارة بعيون مرهقة.

في منتصف النهار توقّفت سيارة أمامه وترجّل منها رجلٌ وقور، اقترب من مالك ودقق في ملامحه، ابتسم في ظفر، بينما ابتسم الآخر لغنيمة جديدة، هذا الرجل ميسور الحال وسيمنحه مالاً يسيراً، سأله الرجل عن اسمه وعمره وكل شيء، وعده بأن يمنحه حياة مترفة، حياة لم يجربها من قبل، توجس مالك خيفة، فسأله:

– وما المقابل؟

- أنا الطبيب جمال، سأجعلك حسن الهيئة، تمشي بين الناس برأس مرفوع.
- ربما لم تسمع سؤالي، ما المقابل؟
- سنستفيد معاً، أنا أصبح طبيباً مشهوراً وأنت تصبح وسيماً، لقد أنهيتُ دراستي وعلي إنهاء مشروع تخرّجي، سأمنحك ما تريده من مال، وفي المقابل ستكون أنت المشروع وسأعمل جاهداً لأجعلك بحالٍ أفضل.
- تلهو بوجهي وتعبث فيه وربّما تشوّه ما بقي منه صحيحاً.

ضحك بسخرية وقال:

- وهل في وجهك شيء صحيح؟ سأدفع جزءاً كبيراً من مالي لأحسّن وجهك قليلاً.

فكر قليلاً، ربما لو فعلها لاعترفت به أسرته، وطلب يد سارة للزواج، ولرحب به عمر وتركه يعانق صبا. أومأ برأسه مؤدّياً علامة الموافقة، أخذه إلى منزله، طلب منه الاستحمام، خلع ملابسه القذرة وارتدى ملابس راقية، التقط له العديد من الصور.

وفي اليوم التالي أخذه إلى عيادته وبدأ يجري له عمليات لتجميل وجهه، عملية تتلوها أخرى، ظلّ على هذه الحال أياماً وهو لا يعرف عن حياته

شيئاً، كلّما انتهت عملية سارع إلى أخرى، وكلّما استفاق من نومٍ نام لإتمام عملية جديدة. وسارة تفتّش عنه، لقد وعدها ألا يغيب وغاب أسابيع ليست بالقليلة، لم تجد مكاناً إلا وبحثت فيه أتراها الحرب سرقته منها؟

بعد أشهر عدّة انتهى الطبيب من عملياته، الآن أصبح رجلاً وسيماً، لقد نجح الطبيب، صار يصرخ بفرح:

– فعلتها، فعلتها، أنا طبيب ماهر، ستكون مشروع نهضتي وثرائي.

طلب مالك أن يذهب إلى سارة ليُفرح قلبها وتشاركه أيام غبطته، لكنه رفض خشية أن يتسلل من بين أصابعه ويهرب فلا يجده، هو الآن ملكه، طريق نجاحه وثرائه، يجب عليه إظهاره إلى العلن بالسرعة القصوى إذ يخشى أن تنهي الحرب حياته قبل إعلانه للناس.

اصطحبه إلى الجامعة كما البهيمة، وهناك أظهر صوره على شاشة عملاقة قبل عمليات التجميل وبعدها، صرخ الناس (واو! وما أشدّ براعتك! طبيب ناجح! ذكي بشكل يثير الجنون) لقد نال درجة الامتياز وصفق له الجميع مهللاً لنجاحه، أصبح خبراً دسماً في وسائل الإعلام، ومالك ظلّ في الزاوية لا يسألونه إلا عن مشاعره قبل العملية ومشاعره الآن، المقابلات لا تنتهي في المذياع والتلفاز والجرائد، في كلّ لقاء صحفي يخبر الناس كيف وجده مرميّاً على قارعة الطريق، الآن يعيش بفضل ماله، وكلّما همّ بالحديث أسكته

بأنه صاحب فضل عليه ولولاه لظلّ إلى الآن يقف تحت شمس يوليو يبيع المناديل الورقية.

عودة إلى الحاضر

وضع يديه في جيبيه يتأمّل شحوب وجه الطبيب، صاح فيه قائلاً:

- ألا تريد إطلاق سراحي؟
- لا أفكّر بالأمر، على الأقل الآن.
- لم لا تتمسّك بإنسانيتكَ قليلاً؟
- كيف أكون إنساناً وهذا العالم قادني إلى الوحشية، حين رأيتني في الشارع الواسع واقفاً كنت شارداً بالجهات التي ركضتُ نحوها يوماً بكل قوتي فتلاشت عمداً، فوجدتك أمامي بدل أن تمد يدك لانتشالي صفعتني، كثرة الصفع لم تجعلني أعتاد الأمر بل زاد فزعي من الأيدي الممدودة لو لعناقي.
- لقد جعلتك قضيتي الوحيدة، لم أحارب لأجل نفسي، بل لأجلك أيضاً.

- تشعرني أنني أحد أبناء عائلتك، كأنني الأولويّة في حياتك، أنا وأنت نعرف أنك فعلت ما فعلته ليصير لك اسم في عالم الشهرة والمال.
- وأنت استفدت من ذلك، حذارِ أن تنكر الأمر.
- لم أستفد إلا بعد أن أنهيتَ شهرتك المزعومة التي بلغتها على كتفي، لا تكرر كلامك بأنك فعلت ذلك لأجلي.

صمتَ الطبيب ولم يعقّب على كلامه وإنما تمدد على سريره واضعاً يديه خلف رأسه وأشاح به للجهة الأخرى ليقابل الجدار، فأكمل مالك:

- مقبرة كاملة لا تكفي لدفن ما أشعرتني به حينها، مذ ولدتُ وأنا أحارب الحياة لأصل إلى موتي سالماً، لو أن والدتي ما أفلتت يدي تلك الليلة، ولو أن صبا ما احتضنتني، هل كان ذلك سيغيّر من الأمر شيئاً؟

عاد ينظر إليه وقال:

- إنها أقدار مكتوبة، كقدري وأنا أتلوّى بين يديك، لم أظنّ حين قابلتك أن نهايتي ستكون هكذا.
- وقدري حين كنتُ لعبة بين يديك تشكّلها كما يحلو لك، أرأيتَ أن الأقدار تتغيّر ولا شيء يبقى على حاله.

- أتعرف يا مالك، أحياناً أشعر أني مدين لك بهذه الحياة التي أعيشها، لقد صرفتَ أموالاً طائلة من ثروتي لبناء هذا القصر لتشرف على المدينة، إنك الآن تحميني من رحى الحرب لئلّا تطحنني، وبذلك تسهم في المحافظة على حياتي، ربما لو كنتُ في بيتي الآن لكنتُ تحت ركامه، لكنك الآن تسدي لي خدمة عظيمة دون أن تعي ذلك.
- وما أدراك أني سأبقي على حياتك، لا يغرّنك الأمل.

ابتسم لحديثه، ثم قال بشجاعة:

- أخبرتك أنها أقدار مكتوبة.
- ما لي أراك اليوم لا تقاوم ولا تصرخ بل مستسلم أشد الاستسلام.
- لن أدعك تتشفّى بآلامي يا مالك، أعرف أنني مهما صرخت فلن تفتح لي باب سجنك، لذلك لن أصرخ ولن أبكي دون فائدة.
- أصبحتَ تفهم الآن سبب استسلامي لك.
- أأنتَ استسلمتْ؟ لا أظنّ ذلك.
- كنت هادئاً كما العاصفة، واستسلمتُ كورقة في مهبّ الريح، تلعب بها وهي مستسلمة لقدرها والشجرة لا تقاوم قوّة الرياح، حتى ارتاح قلبك وأصبحتَ تأمن لي، فهبّت عاصفتي واقتلعتك من جذورك، فلا يغرنّك البحر الساكن.

أطلق جمال ضحكة عالية، ثم فقال بهدوء:

- أتظن نفسك شجاعاً، أي إنسان قبطان في البحر الساكن، أنت لم تنجز شيئاً خطيراً، أنا منحتك الأمان وأنت خنته يا مالك.
- الحياة فرص وعليك استغلالها، لو أنك حسنّت خلقي وأديتَ عملك بإخلاص وتركتني أذهب إلى سارة لما انتقمتُ منك، لكنك حبستني في بيتك وعددتني عبداً لك أطيعك فيما ترغب بحجة أنك دفعت أموالاً طائلة عني، مع أنني لم أطلب منك إنفاق درهم واحد.

تركه دون أن ينبس ببنت شفة وصعد إلى الأعلى.

قبل عامين من الآن

تركت آسيا منزل ذويّها واتجهت إلى المدينة، لم تخبر أحداً بما نوته، ها قد مرّ عام وهي تتوسّل لهما العودة وهما يرفضان، لذلك غادرت دون وداعهما، أدركت أنها تفعل الصواب لذلك لم تهتم، ستظلّ في المدينة فجميع من تعرفهم لم يتأثّروا بالحرب كثيراً، في إمكانها أن تصبح مثلهم وتحفظ قواعد اللعبة لتظلّ في أمان، وقفت تتأمّل المدينة، تغيّرت كثيراً ولم تعد كما كانت، كانت تضجّ بالحواجز والسواتر الترابية، لقد مرّت عشرة أعوام على مغادرتها إياها، لم تعرف الطرقات والشوارع، غادرتها وهي صغيرة والآن أصبحت شابة، تريد رؤية الحي القديم مع أنه فارغ ولا حياة فيه، وجميعهم سكنوا الحي الشرقي، لا بأس لتُمتع ناظريها أولاً ومن بعد تحدِّد خط سيرها، تأملت أجزاء الأبنية المهشّمة بألم، عرفت أن هناك جثثٌاً تحت الأنقاض لا يقدر أحد على انتشالها، رغم ابتعادها كل هذه السنوات عن المدينة إلا أنه آلمها ما حلّ بها.

نظرت إلى السماء تأملت سحبها السوداء، وضعت يديها في جيبي معطفها لتدفئتهما، شتاء هذه المدينة قاسٍ جداً كقسوة ساكنيها، ستمطر، هي متأكدة من ذلك، لعل المطر يطهّر الأرض من روائح الدم الكريهة والجثث المتحللة.

وقفت على جانب الطريق تنتظر سيارة أجرة تقلّها إلى الحي الشرقي، وحينها تتصل بعمر ليوصلها إلى بيته، بعد فترة من الانتظار انهمر المطر بغزارة، استقلّت سيارة وأملته العنوان، شردت في شوارع المدينة الهادئة والمستسلمة

لنيران الحرب، انسكبت دمعة من عينيها، مسحتها بكفّ يدها، غاصت المدينة في الظلام جراء السحابة السوداء الكبيرة كأنها من فعل أدخنة الحرب، أما المطر فازداد كوابلٍ من الرصاص.

وصلت أخيراً، ترجّلت من السيارة، نظرت يميناً وشمالاً، هذا الحي هادئ وكأنه مدينة أخرى داخل مدينة تحترق، الحياة هنا قائمة على قدمٍ وساق، مشت في الحي حتّى رأت حاجزاً يقع بين مفترق حارات ثلاث، أخوها هو من يفتّش المارة، لكم اشتاقت لأخيها، نادته بصوتٍ عالٍ، نظر إليها بصدمة، لم يصدّق أن أخته هنا في حيّه وعلى بعد أميال قليلة منه، لقد اشتاق إليها أضعاف ما اشتاقت إليه، مشت باتجاهه وكأنها تخطو على الورود، مشى في اتجاهها وكأنه يطير إليها فالأرض لم تعد تسعه وهو يرى صغيرته بعد غياب عشرة أعوام، مشيا وفي قلب كل منهما ذكرياتهما، آمالهما، أحلامهما، هي الطفلة التي نشأت في أحضانه وهو الأب الثاني الذي علّمها وكبّرها، لقد مرّت أعوامهما معاً وهي تسير بخطوات واسعة اتجاهه.

لكن الموت وضع حاجزاً بينهما، بلحظة خاطفة كلمح البصر، وقذيفة عمياء لم تحدد هدفها جيداً سقطت على بعد أمتار قليلة منهما، فصلت بينهما، ظلّ في حيّه يتأمل النيران التي اشتعلت أمامه، ينظر إلى انفجار قذيفة لم تكن تقصدها، بل كانت تقصده لكنها انحرفت قليلاً، ربما مطلقها كان أحول، صرخ عمر، ركض إليها، عانقها عناق المشتاق، بكى والرجال قليلاً ما

يبكون، انتحب قهراً وألماً، لطالما رأى ساعة الفراق بعيدة، لكن اليوم اقتربت وسرقت منه أعزّ ما يملك، صرخ في قهر وهي بين يديه ساكنة هادئة، بكى الموجودون لانهياره:

- لم عدتِ؟ لم رجعتِ؟ لطالما كنتِ في البرّ الآمن؟ أبعدتكِ لئلّا تعيشي حرباً تدمّرك، فعدتِ لتموتي على أرضها، مازال هناك حكايات لم أسمعها منك، مازال هناك أحلام وآمال، أفيقي ولا تغمضي عينيك.

كان يمسح دمها بيديه ويبكي، اقترب أصحابه منه ليهوّنوا عليه حجم مصيبته، أرادوا سحبها منه، لكنه تشبّث بها رافضاً تركها لهم، يخشى إن تركها لا تعيش من بعد بينهم، التحمت دموع عينيه بدموع السماء، غابت أعواماً وعادت لتموت في حضن أخيها.

- لعودتكِ بعد الغياب ثمنٌ كبيرٌ، لمَ دفعتِ ثمن أخطائنا؟ ليتكِ ما عدتِ. ماذا سأخبر والدتي حين تسألني عن أخبارك؟ كيف أوصل لها أنني عجزتُ عن حمايتك؟ عشرة أعوام والوطن في حمايتي، لم يتسلل أحد إلى هنا، لكني أمام دمائك وقفتُ عاجزاً لا حول لي ولا قوّة. أعوام الحرب المهينة في كفة وفقدانك في كفّة قاسية جداً.

ظلّ يبكي ساعات كما النساء حتى استطاعوا تخليصها منه.

.....

صرخت جمانة حين وصلها الخبر وبدأت تلطم وجهها، ركض إليها أشرف يستعلم عن النبأ العظيم الذي أصابها في مقتل، لم يفهم شيئاً إلا أن ابنته قُتلت في الحرب، قال لها هادئاً:

– كذِبَ من قال لك، هي في غرفتها تعبث بهاتفها، آسيا لا يمكنها عصيان أمري والعودة وحدها.

لم يتلقَّ منها إلا النواح والبكاء ولطم خدودها، نادى طفلته بصوتٍ عالي، ركض إلى غرفتها ليفنّد خبر موتها، لكنها فارغة ومرتّبة وورقة على سريرها تخبرهما أنها ما عادت تحتمل الغربة وقد رحلت إلى المدينة، وكلمات كثيرة تطلب من والديها مسامحتها، ارتمى على سريرها، وضع رأسه بين يديه، لقد فقد طفلته الآن، ما عساه يفعل في هذه المصيبة؟ اتصل بأحدهم وصرخ في وجهه، يطلب منه معرفة أي اتجاه أطلقت منه القذيفة، لم يدعه يكمل كلامه، الكل يعلمون مصدرها، فردّ عليه بنبرة آسفة:

– إنها من طرفنا، كانت في طريقها إلى الحاجز، لكنها انفجرت قبل أن تصل.

أكان المقصود ابنه؟ نجا ابنه لكنها انفجرت في وجه ابنته، آسيا الحنون كعادتها فدت حياة أخيها وكأنها عادت لتكون كبش فداء له. رمى الهاتف جانباً وصاح بصوتٍ جهوري:

– كم هم أغبياء، لطالما نبهتهم ألا يقتربوا من الحي الشرقي.

سيحرقهم، لقد أقسم على ذلك، سيحرق كل من أمر بإلقاء القذيفة، اتصل برجلٍ من رجاله:

– الموقع الذي أُطلقت منه القذيفة، أريده الصبح حدثاً تتناقله وسائل الإعلام كافة، لا أريد لأحد أن يمضي جانبه ويتعرّف إلى معالمه، أريده دماراً هائلاً لا تبقي حتى داراً صغيرةً فيه إلا أحرقتها بمن فيها.

ما عساه يقول لزوجته؟ بأسلحته قُتلت وحيدته، كيف سيعتذر لعمر وينظر في وجهه، خرج من الغرفة لتلتقي عيناه بعيني زوجته، فأشاحها لئلّا تلمح بقايا ضعفه، أما هي كانت في عالمٍ آخر من النواح والبكاء، تؤنّب نفسها لأنها ما استمعت إليها وظنّتها تطالب بالرحيل في لحظات مللها فقط.

أقيم العزاء في منزل عمر، وجاءه الأقارب فقط، اجتمعت العائلة في خيمة من الأحزان يبكون وفاة أصغر فردٍ في عائلتهم، قدّمت ولاء أكواب القهوة

المرّة للجميع، جلست جوار مجد تنظر إلى حزن الجميع، إلى متى سيظلّ الحزن محتلاً مدينتها، قالت ودمع العين يترقرق في المقلتين:

- كانت سعيدة بقدومها إلى هنا، أخبرتني أنها ستكمل ما بقي لها من عمرٍ بجوارنا، فلا أمل لها في الغربة، لكن العمر الباقي لها قصير للغاية، قالت سيحتضنها الوطن فهي ابنته، لكنه احتضنها تحت التراب دون أن تعرف بأي ذنبٍ قُتلت.

بكت كثيراً، ضمّها مجد إلى صدره، انهارت حينها بالبكاء، ابتعدت عنه قائلة:

- لقد احتضن القتلة، فلم عجز عن احتضانها؟

قال عمر بعد أن كان متابعاً صامتاً:

- لم تكن المقصودة، بل أنا، انفجرت قبل وصولها إلى موقعنا، فماتت وعشتُ، ماتت أمام عيني، رأيتُها بأم عيني والشظيّة تخترق فؤادها، وكيف تفجّرت الدماء من شراييها، كلّ ذلك حصل أمام عيني وقد عجزتُ عن حمايتها.

قال مجد:

- أسوأ ما في الحرب أن تخاف على خسارة عائلتك، من لا يملك عائلة لا يخاف الحرب، أصبحنا نعدّ الخسائر كل ليلة قبل النوم،

عشر سنوات مرّت وخسائرنا تتضاعف حتى خسرنا مرحلة شبابنا، تبّاً لهذه الحرب التي قتلت أحلامنا وأودت بنا في جبّ الآلام نتجرّعها باستمرار.

عاد الصمت يسود الجميع إلا من بكاء ولاء فهي صديقتها ورفيقة أيامها، لم يمرّ يوم إلا واتصلت بها وثرثرت كثيراً عن المدينة وأهلها.

قضت الحرب هذه على أحلام الشباب وأوقفت حياتهم، مازالت ولاء تتوسل لمجد أن يتزوّجا، بعد موت آسيا باتت تشعر أن الموت قريبٌ منها كذلك، ترغب إن اختارها الموت أن تكون زوجته وتنجب طفلاً وسيماً يشبهه، لكنه مازال يرفض باستمرار، لا يرغب في بناء حياة جديدة وسط الجثث ورائحة الموت، يريد بناء حياته مع الوطن حين ينهض بعد هزائمه المتكررة وبعدها سيُنشئ له حياة تخصّه، أما هذه الحياة فتجعله مشتتاً غير قادر على البدء من جديد، وولاء لا تفهمه، تريده فقط زوجاً تكمل ما بقي لها من حياة معه.

حمد يزن ربه أنه وأخاه تركا القتال واستقرّت أمورهما وإلا فسيقفان في جبهة متعاكسة.

ظلّ عمر صامتاً، لم يعد يهتم بشيء، زهد الحياة بمن فيها وما عاد يهمه أبحثت صبا عن مالك أم سألت عنه، لم يعد يهتم بواجبات طفله المدرسية، لم يعد يسأل عما أعدّت له من طعام ولم يعد يسألها عن أحوالها وأحوال

عائلتهما، بل اتخذ الصمت منهجاً في حياته، يذهب يومياً إلى الحاجز، يفتّش المارة، يدعو ربه ألا تصيبه قذيفة ويذيق أهله فاجعة أخرى، يعود محمّلاً بخيبات الوطن وخذلان المدن الأخرى له، يستلقي على جانبه، يتذكر طفولة آسيا وصخبها، تنهمر دموعه فتغسل وجهه، يتظاهر بالنوم كلّما دخلت صبا إليه، تقترب منه، تعانقه، يبكي في حضنها كطفل يشكو لها هموم وطنه فهمّ الوطن كبير كالجبل يثقل كاهليه، لقد وضعوا الوطن أمانة في أعناقهم، إما النصر وإما الشهادة، والنصر لن يتم إلا على جثث الشهداء.

.....

مرّ عامان على آخر لقاء بين مالك وسارة، مذ غيابه عنها وهو ينام محتضناً صورتها في خياله، لطالما عدّها طوق نجاة يهرب إليه من وحشة هذا العالم كلما حاصره الأسى، أدرك أن حنينه هذا ما هو إلا حنين عاشق، لكن كيف السبيل إلى وصالها وهو في هذا السجن الذي أوصد أبوابه دون أن يسعفه الخروج منه، لا يريد البكاء فقد كبر على هذا الضعف، ولّى عصر النواح وجاء عصر التخطيط والذكاء.

سيضع خطّة محكمة ويسرق من الحياة بهجته، تذكر كلمتها قبل اختفائه عنها "ابقَ ملاكاً يا مالك ولا تدع العالم يحوّلك إلى شيطان، لا تسمح للألم أن يلوّث قلبك وينتزع الرحمة منك، لا تسمح للمرارة أن تسرق جمالك، افتخر دوماً أنك لم تتلوّث بعد بأحقاد البشر"، لكن الأمر أصعب من أن يتخطّاه

وحده، إنه لأمر شاق على قلبه أن يحمل كلّ هذا الشقاء، عذابٌ كهذا يحتاج إلى قلوب كثيرة تتحمّله.

جلس في الردهة طويلاً وعقله يعمل ويفكر ويخطط حتى انتصف الليل، حمل عصا الغولف الخاصة بالطبيب، كان يغطّ في نومٍ عميق، فلم يشعر بدخوله، لم ينظر مالك إليه، بل كل تفكيره بأن الوقت قد حان للخلاص من هذا الذئب الذي أكمل حياته وهو ينهش من روحه دون أن يبالي بعذابه، ضربه بعصا الغولف على جبينه فتفجّرت دماؤه، رمى العصا جانباً، لم يكن الطبيب يعلم حين اشترى العصا أنها ستقضي عليه ذات ليل بهيم، لا يريد له الموت، سيجعله يتمناه ولا يبلغه، لقد استنزف حياته ودمّره داخلياً، لم يعد بقادر على الوقوف في وجه الحرب الطاحنة، لقد أجهز على ما بقي فيه، مدّ يده إلى جيبه وسرق مفاتيحه ووضعها في جيب بنطاله، أحضر حبلاً وربطه بالسرير، كمَّم فمه وعالج جروحه، وفي النهاية وضع لصاقة طبية على الجرح.

أغلق باب الغرفة خلفه بالمفتاح وذهب إلى غرفته وغطّ في نومٍ عميق، لقد غدت رقبة الطبيب بين يديه، واللعبة خُتمت لصالحه، سيرتاح الآن ويكمل المهمة غداً.

في اليوم التالي استمتع بنشاطاته، لعب الغولف، تناول قهوته، استمتع بفطوره، شاهد الأخبار على شاشة التلفاز، حتى انتصف النهار، حمل الطعام

واتجه إليه، فتح الباب بالمفتاح، وضع الطعام على الطاولة جوار سرير الطبيب، حاول الطبيب أن يتكلّم، كان وجهه غاضباً، انتزع القماشة من على فمه، فصرخ في وجهه أن هذا جزاء المعروف، رعد وأزبد، شتمه بكلام بذيء، هدد بقتله وحرق جثته ورميها في مياه المستنقعات، ومالك صامت يستمع إلى انفجاره حتى قال بهدوء:

- احترق قلبي آلاف المرّات حتى أصبح بهذا السواد، أنا الآن حصيلة إنجازاتك، لا تخف من شيء فأنتَ قد أنجزتَ ونجحتَ في جعلي إنساناً لا أرغبه، رغم مرارة تلك السنوات إلا أنها لم تدفعني أن أكون شيطاناً.

ثم صرخ في وجهه:

- ألم تشبع بعد من تصويري والتنمّر علي في كلّ مقابلة؟ لم تضيّع وقتاً في إذلالي وفي كل حين إهانتي.

ثم هدأ وقال:

- أما تعبتَ؟ لقد تعبتُ عنك وودتُ لو أسكتُّكَ قليلاً، صبري قليل ومع ذلك صبرتُ عليك عامين، أيكفيك ذلك؟
- وما أنتَ فاعل بي الآن؟ أعتذر لك، فكّ قيدي.
- سأطعمك الآن وبعدها أخبرك بما أنوي.

- لا أريد طعامك.
- وأنا لن أتوسّل إليك، هاكَ الطعام إن احتجتَه.
- فكّ قيدي.
- أواثق أني سأفعلها؟
- أنت أجبن من أن تفعل هذا بسيدك.
- سيدي؟؟ أمازلت تفكّر بأني عبد لك وسأظل خانعاً لأوامرك؟
- فكّ قيدي واخرج بأمان الله، لن أقربك، صدقني.
- لكن لا أفكر بما تفكّر به، أريدُ ثمن هذين العامين.
- أنت طمّاع إذن.
- بل قلها بصيغة أفضل "مقتنص الفرص"
- فرصتك ليست معي، منحتك فيما مضى فرصة لا تقدّر بثمن.
- فعلتها رغماً عني، لم أطالبك بها، فعلتها لأجلك، لا لأجلي.
- ولن أمنحك ثمن ما تطلبه.
- إذن ابق حتى تتعفّن ويتغذّى الدود على جسدك.

كان يخبئ جميع ماله في البيت، لم يضع مالاً في المصارف بسبب خوفه من خسارتها بسبب الحرب، ظلّ على هذه الحال أياماً واستسلم فوراً، أخبر مالكاً أين تكمن كنوزه، دلّه على الباب السحري الذي يوصله إلى خزانة مليئة بالدراهم والذهب والفضة.

أخذهم دون أن يلتفت خلفه، تاركاً ذاك لوحدة تنهش عقله، سارع إلى وضع الأساس لبناء القصر على الجبل، سيشرف على المدينة من هنا، الآن انتهى الفصل المؤلم من حياته (فصل المآسي) وجاء فصل الانتقام من الجميع.

قضى في بناء القصر أشهراً عديدة، والطبيب في غرفته مقيّد بالأغلال، لا يسمع شكواه ولا تهديداته ولا صراخه في الليل والنهار، يطعمه في الصباح وفي المساء، يصمت مالك وذاك يصيح ويلعن ويشتم.

انتهى من بناء القصر وجهّزه بالأثاث الراقي، لم ينسَ أن يجهز غرفة في القبو لتكون مسكناً للطبيب فربما تطول إقامته فيها.

نقل الطبيب إلى الغرفة، في البداية كان يقيّده ليزيد عذابه، لكن فيما بعد تركه طليقاً في غرفة صغيرة، أحكم إغلاق بابها بأقفال عدّة.

بعد انتهائه من كلّ شيء اشترى الأسلحة لينتقم ممن تسبب في حزنه يوماً، كان يشتريها من جهة ويبيعها للجهة الأخرى مقابل مال كثير، لا يهمه من يموت في حربه، شرطه الوحيد ألا يقترب أحد من ذاك البيت.

بحث عن سارة دون تعب حتى وجدها في مكانها المعتاد، اقترب منها، كانت تقف ترتجف برداً، ترتدي قميصاً لا يدفئها، تحاول تدفئة يديها ببعضهما، نظرت إليه، لم تعرفه، اقتربت منه وقدّمت له علبة مناديل ورقية لعلّه يبتاعها

منها، مازالت ابتسامتها لطيفة، هذه الابتسامة التي منحت قلبه الأمل في لحظات يأسه، لطالما عشقها وهي ترتسم على صفحات وجهها، قال بألم:

- سارة.

يا ربّاه هذا الصوت كأنه يخصّها، لكن ذاك طالته رياح الحرب الهوجاء، طالعته باستفهام، طالعها بعتاب، دقّ قلبها بعنف، فسألها متوجّساً:

- ألم تتعرّفي إلي؟
- وكأنني أعرفك، لكني لا أذكرك، أشعر بك خارجاً من حكاية قديمة نسيتها في زحمة الحرب.
- أحكايةٌ قديمةٌ قد أصبحتُ يا سارة، أنسيتِ مالك؟
- مالك!!

تأملت وجهه الجديد، سحابة الألم في عينيه، ثم قالت بحذر:

- هذا الوجه لا يشبهه بشيء، هل استُبدلتَ في هذه الحرب؟

ضحك بقوّة وقال:

- اسمحي لي أن أعانقك، لكم اشتقتُ إليكِ.
- لكنني ما زلتُ لا أذكرك.
- مازلتِ بريئة، وكأنّ الحرب لم تلوّثك.

- لقد تجاوزتها، عرفتُ ذلك حين وجدتني أتذكّر تفاصيل الحرب ولا أتأثّر.
- من أين جاءتك هذه القوّة، لطالما عهدتك جبانة.
- اصدقني القول، أأنتَ مالك؟ ما الذي غيّرك؟
- أنا مالك يا سارة.

ركضت إليه وعانقته، بكت كثيراً، قالت:

- الأيام في غيابك لا طعم لها، غيابك مؤلم كما الحرب، لكن ليس هناك أشدّ إيلاماً من بقائي في مكانٍ يذكّرني بك ولا أشعر بانتمائي إليه، أخبر نفسي كل ليلة بأنه يجب عليَّ ألا أطيل البقاء هنا، لكنني أعود فأقول لا يجب علي الهروب، يجب أن أتألّم كي تشفي ذكرياتك جروحي.
- لن أتركك مرّة أخرى.
- أهذا وعد؟
- بالتأكيد.

سكت قليلاً وأبعدها عنه قائلاً:

- سارة.

نظرت إليه بعينين تلتمعان شوقاً وحبّاً، بادلها النظرات بأخرى حانية، ثم قال:

- أتتزوجينني؟

فغرت فاها، لم تعتقد أنه سيطلبها للزواج وهي تظنّ أنهما مجرّد صديقين، ابتسمت وأومأت، سحبها من يدها إلى سيارته، قادها بسرعة إلى قصره، قالت بعد أن دخلت قصره تتأمل جمال المكان وروعته:

- أصبحتَ من أثرياء الحرب يا مالك، من أين لك هذا؟
- الحياة فرص، لم تمنحها لي الحياة يوماً، حين ضنّت علي بالسعادة انتزعتها منها. هذا حقي يا سارة، إنه يعادل عذاب عامين من الوجع.

سكتت ولم تكمل، تعرف أنه لن يتكلّم إلا إذا أراد ذلك، أمسكها من يدها قائلاً:

- ليس معي هوية، أتقبلين أن تكملي حياتك مع رجل لا يمتلك وطناً.
- قلبي وطنك يا مالك.
- ستنجبين صغاراً لا يحملون هويّة.
- لنصبر قليلاً، لا نعرف ما سيحصل غداً، الحرب ستغيّر الكثير وأكبر دليل على ذلك ثراؤك الفاحش.
- أراكِ تتهكّمين على هذا الثراء؟
- أخبرني بالحكاية.

أخبرها لأنه يثق بها ويحب الثرثرة معها، ابتسمت له بحبٍ، أقسمت أنها ستظلّ له طال العمر أم قصر.

- ستنجبين أطفالاً في مثل قبح وجهي.
- يكفيني أنهم أولادي منك أنت.

اتصل بأحد الشيوخ، طلب هويته، أخبره أن الوطن لم يمنحه هوية، كُتِبَ الكتاب، غادر الشيخ مع الشهود وأصبحت سارة زوجته.

الفصل الثالث

عودة إلى الحاضر

وقف مالك يقرأ ما كتبه قبل ثلاثة عشر عاماً، كلّ خذلان شعر به كتبه على ذاك الجدار الرطب، شعر بأحد يقف خلفه، عرفها فقد اشتمّ رائحة عطرها، ثم لا يجرؤ أحد على الدخول إلى هنا سواها، قال دون أن يلتفت:

- كنتِ لي وطناً يا صبا، لم أشعر بالغربة إلا بعد فراقك.

ثمّ استدار إليها يتأمّلها وكأنه يحفظ ملامحها، قالت:

- كيف عرفت أنني أنا دون أن أتكلم؟
- عطرك دلّني عليكِ، أتعرفين يا صبا؟ ما وددتُ شيئاً مثلما وددتُ ألا ينتهي دوركِ في حياتي، لطالما خفتُ أن أقف وحدي في حكايتكما.
- لا أحد يتخلّى عن الأشياء التي يتوق لها إلا بعد أن يجرحه فكرة الحفاظ عليها.
- وهل جرحتكِ يا صبا؟
- لم تفعلها من قبل، كنتَ ابناً باراً، لكنّك فعلتها الآن، لو كنتُ أعلم أن الحياة ستغيّرك للأسوأ لخبّأتكَ جيّداً، كنتَ جوهرتي الثمينة، لم

أستطع الحفاظ عليك فخسرتك وخسرتُ المدينة كلها، وفي نهاية المطاف شعرتُ أن من احتواه قلبي كان سراباً، أنت لم تعد مالكاً الملاك البريء، غدوتَ إنساناً لا أعرفه.

- تحملتُ صعوبة العيش لأجلك، لأنكِ كنتِ تمسكين يدي، وحدك من فهمني وسمعني، لم أشعر بمشقّة الحياة لأنني شاركتها معك، شاركتني الوجع والضحكات، كنتِ وطني يا صبا، الوطن الآمن، لم يحتوني وطنٌ بعد غيابك.
- لا تنكر أن تلك التجارب جعلت منك إنساناً واعياً، قدِّسها يا مالك، ولا تستبدلها بالإجرام.
- في كلّ مرّة يتخلّى عني أحدهم أفقد جزءاً من قلبي، الآن أصبح قلبي مقتضباً جداً لا يسع للفرح والسعادة، لم يعد هناك مكان للضحكات، لأن قلبي امتلئ بالآلام.

سكت قليلاً، تركها خلفه وصعد للأعلى، تنهد بهدوء وجلس على حافة البحيرة، تبعته وظلّت واقفة تستند بجذعها إلى شجرة التين، قال وهو يطالع البيت بعينين حادتين كالصقر:

- يأخذني الحنين لأجد نفسي في هذا المكان، أشكرك لأنك صنعت لي ذكرى في زوايا تلك الغرفة، أستذكر كلّ ليلة حواراتنا ونقاشاتنا وضحكاتنا معاً.

اقترب من مكان وقوفها، وقال:

- التجارب القاسية هي أمهر النحاتين، تشكّلنا كيفما تشاء، فلا تلومي قسوتي وأنتِ وحدك تعلمين ما حل بي.
- وما شأنُ سكان المدينة في تجربتك هذه، أرجوك أوقف الحرب، فقد قضت على أحلام شبابنا ومستقبل أطفالنا، لم يعد لنا ولهم مستقبل، ستلزمنا أعوامٌ عديدة لإعادة بنائها، سيسرقونها مجدداً بدعوى أنهم من دافعوا عنها، نحن من ذقنا الحرب وأودت بنا فسنظلّ على هامش حياتهم، أوقف الحرب لنكبر ويكبر أولادنا دون خوف، لنعد معاً إلى البر الآمن، نريد لمدينتنا السلام كما في المدن المحاذية لها.
- وهل ستتحمّلين ما يحدث بعدها؟ هل سيتحمّل عمر النتائج؟ إن كان على الحرب أن تتوقّف فستكون الخسارة كبيرة.
- لا انتصار دون خسائر وهزائم ودماء.
- سأوقفها لأجلك يا صبا، سأوقف انتقامي، يكفي ما وصلتُ إليه، لكن إن لم تتوقّف فسيكون هناك طرف مستفيد من اندلاعها.

.....

جلست ولاء في غرفة مجد تساعده في إعداد الحقيبة والدموع تغسل وجنتيها، كيف اتخذ قراراً خطيراً كهذا دون أخذ رأيها؟ لم يناقشها بالأمر ولم تعرف إلا

قبل ساعة من رحيله، زفر بيأس وهي تبكي دون توقّف، طوى قميصه ورماه في الحقيبة بإهمال، ثم أمسك يديها الاثنتين وقبّلهما، مسح دموعها وضمّها إلى صدره، فشهقت وبكت بمرارة، ثم قالت:

- أرجوك تخلَّ عن فكرة السفر، المدينة دونك لا تطاق وما يصبّرني على العيش فيها إلا أننا نتقاسم الهواء ذاته، أريدك أن تبقى لنلتقط صوراً كثيرة ونضحك لانتهاء الحرب، ستنتهي يوماً ونجلس على سطح بيتنا الكبير، نتأمّل السماء ونتشارك القهوة، أريد حين يتقدّم بنا العمر أن نحكي لأحفادنا عن حبٍّ ولد في دمار الحرب، سأذكّرك أني كنت صابرة لأجل لحظة مميزة، ولن أندم على عمرٍ فات لأنك شاركتني إياه.
- لا تصعّبي الأمر عليّ أكثر من ذلك، كلامك هذا كنصل يُغرز في قلبي، أتعتقدين أني مرحب بفكرة الهروب؟ لكن لا أمل لي هنا، مرّ ثلاثة عشر عاماً على هذه الحرب وكل عام نأمل أنه سيكون العام الأخير، وبعدها يأتي أمر أشدّ ضراوة، لا أحلام للشباب هنا، ليس لي عمل استرزق منه، انتهى مستقبل المدينة وحتى حين تتحرر لن تعود مثلما كانت، ستصبح أسوأ وسيتمنى الناس عودة الحرب لأن بطونهم لم تكن فارغة حينها، سنركض خلف رغيف الخبز ولا نصل إليه.

- وكأنّك تطفئني على مهل وهذا أسوأ من الانطفاء الفوري، بين كلّ هذه المخططات أين أنا من حكاية سفرك؟
- أنتِ الحكاية كلها، أنا مسافرٌ لأجلك، وحينما تستقرّ أموري سأرسل إليك لتتبعينني.
- لكن أمي ستظلّ وحيدة دون رفيقة، تكفيها خسارتها لوالدي، لن أمنحها خسارة جديدة.
- ستعيش مع والدتي ريثما أستطيع تدبير أموري وإرسالها إلينا، اصبري يا ولاء، ما هو إلا عام واحد وتكونين في بيتي، حينها لن أتخلّى عنكِ إطلاقاً.
- هل المدينة التي اخترتها أفضل من هذه؟ لا أظنّ ذلك، لن تشعرك بالأمان وستظلّ باحثاً عنه، سيهاجمونك في غربتك لأنك لاجئ ويتهمونك أنك أتيت بلدهم لتدميرها، لن يروا حزن عينيك ولا انتفاضة قلبك لأجل وطنك، لن يروك إلا محتلاً لبلادهم أتيت لتعبث بها وتنهب ثرواتها العظيمة.
- وطنٌ كوطني لا يُستبدل بآخر، هنا ذكريات طفولتي وشبابي، حبي الأوّل وقبلتي الأولى، قهوة أمي الساخنة، عناق أخي، ابتسامات أختي، ثمة روائح لطيفة لا مثيل لها إلا في أرض الوطن، كرائحة الخبز الساخن، الياسمين، القهوة، رائحة الأرض بعد المطر، رائحة

العشب بعد سقيها، أشياء كثيرة لا وجود لها في الغربة، لكن حالي كحال الشباب، أبحثُ عن مكانٍ يدرّ عليّ أموالاً تجعلني أنفق بسخاء دون أن أنظر إلى التقويم المعلّق على الحائط لأفتش فيه عن آخر يومٍ في الشهر، أريد لكلينا العيش فقد تعبتُ لأنني أبحث عن سبل رزقي دون أن أصل.

أكملت مساعدته ودمع العين لم يتوقّف، كلاهما على حق فيما قاله، وضع حقيبته جانباً، قبّل يد والدته وعانقها، عانق أخاه وأخته وعمر، قبّل يوسف الصغير، عانق ولاء وقبّل جبينها، طلب الدعاء من والدته، غادر دون أن يلتفت خلفه لئلّا يضعف ويعود أدراجه.

كلّهم يدركون أن طريقه طويل ليصل إلى البر الآمن، هناك بحر متلاطم الأمواج وغابات مليئة بالحيوانات المفترسة ومدنٌ كثيرة وقطّاع طرق، إنها مخاطرة كبيرة، ربما يصل وربما لا يصل.

.....

ضحكت سارة ومالك يخبرها بإنهاء الحرب، نظرت إليه تفكّر في قراره المفاجئ، لم تجد في عينيه القسوة، وجدت القهر والتعب يسكن ملامحه، صمتت شاردة في أمره الذي طالما حيّرها، لا تعرف ما يشغل باله، قاطع شرودها قائلاً:

- هل ستحبينني كما أنا؟ بملامحي المتعبة وقسوتي ومزاجي المتقلّب، هل ستظلّين على عهد حبّك.
- لطالما كنتُ قمراً تائهاً وكنتَ مداري، حين عدتَ إليّ شعرتُ أني طير مهاجر قد عاد إلى موطنه، سنظل معاً ولا يصيبنا فراق.
- لكننا متناقضان، أنا الليل بظلامه، وأنتِ النهار بأمله، أنا العبد العاصي وأنتِ الإيمان، أنا الشيطان وأنتِ الملاك.
- سأسحبك من آلامك، وأنقذك من غرقك، سأنصرك على نفسك، وأقوّم اعوجاجك وأصلحك، سأخبّئك في قلبي وسأكون عونك على كل الأيّام.

ابتسم لها ونظر إلى بطنها المتكوّر، فقال لها:

- ألم تحن ساعة الولادة بعد؟
- لقد اقتربت كثيراً، سأنجب طفلاً وسيماً يشبهك.

لقد نسيتْ وأخطأتْ خطأً كبيراً، نظر إليها مالك شزراً، وقال:

- أنا لستُ جميلاً يا سارة، هذا الوجه لا يخصّني، الأفضل لكِ أن تنجبيه يشبهك لئلّا تخسريه.

دقّ قلبها بعنف وهي تنظر إلى جمود عينيه، كيف يستطيع بسهولة التحوّل من الحنان إلى القسوة ومن التعب إلى الراحة؟

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟

تجاهل سؤالها وقال:

- ستأتي صبا لزيارتنا اليوم.
- صبا! وكيف عرفتْ طريق القصر؟
- ليس صعباً أن تدلّي أحد على مكانك، ثم إني أرسلتُ لها السائق ليأتيني بها.

لم تعقّب على كلامه، غادرت إلى غرفتها، تختفي خلف جدرانها، استوقفها قائلاً:

- إلى أين؟
- سأبدّل ثيابي إلى أخرى تليق بضيفتك.

نهض من مكانه واتجه إليها، قال لها بحنان:

- إنها ضيفتك أيضاً، صبا ليست غريبة عنا يا سارة.
- أعرف أنها طالما سكنت قلبك ولم تغادره أبداً.
- لمَ لا تفهمين أن صبا هي الشيء الجميل الذي أنار حياتي، إنها مثال لأيقونة نحتها أعظم النحاتين، صبا بطلة كل الحكايات، هي رمز للحنان، كوني متفهمة وتعاملي معها على أنها صديقة، حينها ستحبينها يا سارة.

سكتَ قليلاً، ثم قال:

- لا تخسريني لأجل صبا يا سارة.

كانت هذه الكلمة بمثابة الصاعقة لامرأة تغار على زوجها، ما الذي جعلها تتفوّق عليها، أومأت برأسها علامة الموافقة وغادرت إلى غرفتها، ارتمت على سريرها تبكي خذلانه لها. دخل إليها وهي على هذه الحالة، فقال لها:

- أخبرتك عن ظلمتي منذ البداية، أنتِ التي قررتِ أن تلعبي دور النور في حياتي.
- لم أعتقد أنك سترتضي لي الأذى وقد كنتُ أحسبك أرقّ على قلبي مني.
- عن أي أذى تتحدّثين؟ قد أخبرتك حكايتي معها، قد كانت لي أماً حين تركتني أمي وحيداً على عتبة دارهم، هي الآن بعيدة عني كشيءٍ لا يُرى، قريبة جداً كملمس يدي، عالقة في منتصف الطريق بيني وبين كل الأشياء.
- وكأنّك تقرأ فيها شعراً؟
- أحبّكِ يا سارة، ولا أطيق حزنك هذا، أما صبا فحكايتها لا تُروى لأنها معضلة من الصعب تفسيرها، إنها كمطلع قصيدة، وحبكة في رواية متفرّدة في حب البطلة، إنها أمي يا سارة، قلبها نقي كقلوب الأمهات.

ابتسمت سارة وعند ابتسامتها رنّت صبا جرس الباب، خرج مالك وسارة لاستقبالها، هذا أوّل لقاء بينهما، لطالما تمنّت أن تتعرّف إليها، خاب ظنّها فيما رأته، إذ وجدت نفسها أمام امرأة عاديّة الملامح، في منتصف الثلاثينيات، تسبقها سارة بمراحل من الجمال، صافحت صبا سارة ثم مالك، عرّفهما على بعض، قالت صبا:

- لم تخبرني بأمر زواجك.
- اجلسي يا صبا، لم يكن هناك وقت لأخبرك.

جلست على الأريكة، وجلست مقابلها سارة تتفحصها، جلس مالك بجوارها، واضعاً يده خلف سارة، باركت صبا لهما زواجهما وباركت حمل زوجته، بعد التهاني والمباركات، قالت صبا بعد أن سكتت قليلاً تتأمل سارة ومالكاً معاً:

- في الحياة يا مالك طريقان عليك اختيار أحدهما، الطريق الأول يحوّلك إلى ملاك والآخر إلى شيطان، لمِ اخترت أيسرهما؟
- لقد مشيتُ في الطريق الأول يا صبا فداسني الناس، لا حياة للملائكة في هذه المدينة.

سكت هنيهة ثم أردف بهدوء:

- ذكرتني بمقولة صغيرة لابن خلدون "الأيام الصعبة تخرج رجالاً أقوياء، والرجال الأقوياء يصنعون الرخاء والترف "

قاطعته صبا بقولها:

- " والرخاء والترف يخرج رجال ضعفاء، والرجال الضعفاء يصنعون أياماً صعبة".

قالت سارة وهي تنظر إليهما متعجّبة من حديثهما:

- لا أفهمكما، وكأن هناك حرباً باردة تدار بينكما.

نظرت إليها صبا وقالت:

- أنتِ ملاك يا سارة، كيف ارتضيتِ العيش مع شيطان؟
- لأنني نظرتُ إلى روحه والتحمتُ بها، يمكنني تحريره من نفسه، سيعود إنساناً، إنساناً فقط، لا عيش للملائكة هنا.
- ستحرقك نيرانه.
- سأطفئها بحناني.
- إن أغرقتك مياهه فلا أعتقد أن هناك سبلاً للنجاة.
- سنلتحم معاً ريثما ينتهي المد.
- ألم أقل لكِ إنك ملاك، من الغرابة أن تكونا بهذا التناقض وتعيشا حياة خالية من الشقاء.

خرج مالك عن صمته وقال:

- لسارة قلبٌ جميل يشبه قلبك يا صبا، لذلك اخترتها وكأنها أنتِ، ثم ما أدراكِ أن حياتنا خالية من المشقة والتعب.

حزنت سارة لكلامه، كانت تظن أنه مغرمٌ بها ولكن ما سمعته الآن أثبتَ أن مالك مازال عالقاً في دائرة صبا، استخرجها من شرودها صوت صبا الصارخ:

- أمازلتَ مصّراً على القتل؟

صاحت سارة:

- أقتل مجدداً؟

ثم استدارت إليه وسألته:

- أصحيح ما تقوله؟

ظلّ صامتاً ولم يجبها، قالت صبا:

- أأنتَ من قتله؟

خرج عن صمته مجدداً وقال:

- ألم تطلبي مني إنهاء الحرب، أنهيتها كرمى لكِ.
- أنهيتها بدماء عمك؟

- هو من أشعلها، كان يجب أن يموت لتنطفئ.

انتفضت واقفة وصرخت في وجهه:

- كاذبٌ يا مالك، عمك أشرف ليس هكذا، هو هرب إلى الخارج منذ اندلاع الحرب.

وقف قبالتها ووضع يديه في جيبي بنطاله، قال بهدوء:

- ألم تسمعي ما قيل في الأخبار؟ افتحي التلفاز يا سارة، ودعيها تسمع عن الصفقات التي صنعها عمها لإشعال الحروب في وطنها، ألم يخبركِ عمر بذلك؟ كان يعتقد أنه يحمل نصيباً من اسمه، لكنه أبعد ما يكون عن الشرف. ألا تعرفين بأن القذيفة التي قضت على حياة ابنته كانت من حرّ ماله، لقد دمّر الحي على رؤوس ساكنيه، شرّد الآلاف ويتّم الأطفال ورمّل النساء انتقاماً لدماء ابنته، مع الأسف ما زاده ذلك إلا تجبّراً وطغياناً وأصبح كالسيل لا أحد يستطيع إيقافه.

نظرت إلى التلفاز ورأت خبر مقتل عمها، هوت دمعة على خدها، مسحتها بعصبية، مسك مالك يدها وسحبها إلى الشرفة، كانت المدينة هادئة على غير العادة، اقتربت من سور الشرفة، تأملت حياتها العصيبة في هذه المدينة، وقفت سارة خلفهما، قال مالك:

- هذه مدينتك يا صبا، انتهت الحرب الآن، لم يعد هناك مجال للخوف.
- لكن مخلّفات الحرب ستكون أقسى، فقر مدقع، لن نحتمل الخراب، انهيار البنى التحتية، ماذا زرعنا لنحصد كل هذا الخراب؟
- زرعنا لصوص الوطن بيننا.
- لطالما كانت مدينتنا آمنة، لا نرغب إلا في العيش بسلام، لم نطلب أكثر من حقنا، لقد عاش فيها سنوات عمره، أيدمّرها من أجل المال؟ المال لم يشترِ حياة طفلته، من الذي أنهى لأجله مدينة كاملة؟ والآن ترك أمواله وغادر الدار ولم يوصِ أحداً.

وضع يده على كتفها ليهدّئ من روعها، فانتفضت واستدارت إليه قائلة:

- أنت لا تختلف عنه، أنتما وجهان لعملة واحدة، سيطالك خراب هذه المدينة ولن تجد منفذاً للسعادة، ستظلّ تلاحقك أحلام ساكنيها الذين يطالبونك بعودة شهدائهم، ببناء دورهم، بعودة غائبهم، وتحقيق أحلامهم.

تركته وغادرت إلى بيتها، بينما ظلّ شارداً يفكّر في كلامها، أول مرة تقسو عليه هكذا مع أنها عرفت أن له ضلعاً في هذه الحرب لكنها اليوم أدركت أنه قاتل ولا يختلف عن عمه في شيء، لكن ما لا تعرفه أنه على خلاف عمّه،

فهو لم يقتل الشرفاء بل قتل أشرارها، كان يقتني الأسلحة ليحرر المدينة منهم.

.....

جلست سارة تشاهد التلفاز بعد رحيل صبا وكلامها يُعاد في ذهنها مرّات عدّة، أما هو فدخل إلى القبو، نظر إلى جمال وقال:

- سأحررك الآن، فقد أنهيتُ انتقامي.
- لم يمضِ اثنا عشر عاماً بعد؟
- تكفيك هذه الأعوام القليلة وأنت في الظلام.
- وكأن الحرب انتهت؟

أومأ برأسه دون أن يجيب، صرخ الطبيب:

- أطلق سراحي إذن، ألم أخبرك من قبل أنك كنت عوناً لي في الحفاظ على حياتي.

ظلّ يتأمله، وقف الطبيب ينظر إلى النافذة العلوية وسأل مالكاً:

- في أي شهر نحن؟
- أغسطس.

- رائع، فصل الصيف ممتع، إنه يدعوني للبهجة والسعادة، سأغادر الآن، لدي عمل بانتظاري وعائلة تشتاق لوجودي بينها.

ثم نظر إلى مالك وقال:

- أأعجبك العيش في ثروتي؟ ألن تعطيني جزءاً منها؟
- مازلتَ طماعاً أيها الطبيب.
- الحرب ستخلّف الغلاء، أريد ثروة قليلة لأسافر وأهرب من مخلّفات الحرب.
- وما شأني بك، اذهب الآن قبل أن أغيّر رأيي وأدفنك في ساحة القصر.
- لا، لا أرغب بالموت الآن، لقد صبرتُ لأعيش لا لأموت، أريد أن أرقص فرحاً بانتهاء الحرب.

وخرج راكضاً من الغرفة، شعر مالك أن حملاً ثقيلاً زال من على كتفيه.

.....

صاح عمر في وجه صبا:

- أين كنتِ يا صبا؟

جلست مقابله وقالت:

- ذهبتُ إلى مالك لأعرف ما يُدار خلف كواليس الحرب.
- مجدداً يا صبا، كم مرة أخبرتكِ ألا تقابليه، ثم تكسرين قواعدي.
- وكم مرّة أخبرتك أنه ابني ولا أكنّ له شعوراً آخر، ثم إنه متزوج الآن وقريباً سيرزق بطفل.

تجاهل كلامها وغيّر دفة الحديث قائلاً:

- ستعود والدتي قريباً.
- لا أعتقد أنها سترضى بالعيش هنا.
- أصبحت وحيدة في الغربة.
- أسمعتَ يا عمر شيئاً عن عمي؟
- أعرف إلام تلمّحين؟ وأعتقد أن هذا السبب الذي دعاكِ لزيارة مالك، أصدقيني القول، أمالك من فعلها؟

التزمت الصمت وأشاحت وجهها بعيداً عنه، فقال:

- وصلني جوابك، وأعتقد أني أعرف السبب.
- طلبتُ منه سابقاً إيقاف الحرب، أخبرني حينها أن الحرب لا تقف إلا بخسارة أحدهم، لم أعِ ما قاله في البداية، ظننته يقصد ضحايا الحرب، لكني فهمتُ كلامه متأخرة.

- مع أنني أعلم منذ البداية، وواجهته بعد استشهاد آسيا، لكني حين وجدتُهم كلهم يعلمون شعرتُ بمشاعر مؤلمة، في الوقت الذي كنتُ فيه أنا ويزن ندافع عن المدينة كان يدمّرها، وحده من قتل رفاقنا، لم أكن أعلم لمِ الحي الشرقي هو المكان الآمن الوحيد في المدينة لكني علمتُ متأخراً، لأننا نعيش فيه.
- هوّن عليك يا عمر، أنتَ لست مثله ولن تكون كذلك.
- لكن جميع رفاقي رأوه فيّ وكأنّه يمثّلني، لم يصدق أحد أنني ما كنتُ أعلم، كل ما حِيك في الغرفة المظلمة لم أشهده ولا شهدتُ على قراراته وأفعاله، أنا بريء من كل ما نُسب إليه من جرائم.

أومأت له برأسها، وعانقته، فقال لها:

- أترتضين أن تكملي حياتك معي وأنتِ على علم بهذا الأمر؟
- أيعقل أن تقول هذا الكلام لزوجتك وأم طفلك؟ أنت يا عمر من حمل المدينة على روحه، كنتَ تخرج صباحاً وبيدك كفنك، كلّ صباح تقبّلني قبلة الوداع، أنت من حميتها من والدك وأمثاله، لن أكون مثلهم يا عمر وأقصيك من أفعالك لأنني شاهدة على ما فعلتَ لأجل وطنك.
- يكفيني يا صبا أنك وعائلتي معي، ولن أطلب شيئاً من هذه المدينة.

.....

في الليل جاءت عائلته، ارتمت ولاء على الأريكة جوار يوسف وقالت:

- لقد وصل مجد إلى البر الآمن.
- الحمد لله على سلامته.

صدرت هذه الجملة من أفواه الجميع، ها قد اطمأنوا على فردٍ من العائلة، ربت يزن على فخذ عمر ليطمئنه أنه لن يخوض معركته القادمة وحده، فقال:

- لا تحزن يا عمر، نحن معك، ولن نتركك.
- لقد أقالوني من عملي، قالوا لي أنتَ لا تستحقّ أن تكون جندياً يدافع عن شرف الوطن وأبوك من باعه، لقد وضعوني معه في نفس الخانة.
- ابتسم يا ابن العم ولا تحزن، أنا وأنت سواء في هذا الأمر، أقالوني أيضاً، مع أنني حاولتُ الانشقاق عنهم لكنني فشلت، إذ أخبروني أن عمي خائن للوطن وسأكون يوماً ما مثله، لم أحزن، أخبرتهم أن بإمكاني الآن الزواج، أتعرف لِم يا عمر؟
- لماذا؟
- في كلّ مرّة أغرم بفتاة تبتعد وتخبرني أنها لن تتزوّج جندياً يحمل روحه على كتفه، كنت سعيداً لمجد وولاء تطالبه بالزواج سريعاً،

أيقنتُ حينها أن الحب أقوى من الحرب، الآن وقد سلّمتُ سلاحي صار في إمكاني بناء عائلة، ومع ذلك سأسهم في إعادة بناء الوطن، لن أكون خانعاً راضياً بما قالوه لي، المدينة تطالبنا جميعاً بإعادة إعمارها.

.....

جاءتها آلام المخاض، ظلّت تصرخ من الألم، لا يعرف ما يفعل، لم تخبره الطبيبة بما يتوجب عليه عمله إن حانت ولادتها، طلبت منه باكية الاتصال بصبا وجلب الطبيبة معها، اتصل بها وطلب منها ألا تخذله هذه المرّة، سيرسل لها سيّارة تقلّها والطبيبة، استمعت إلى توسّلاته وكأنه عاد مالك الطفل القديم، استأذنت عمر ولم يعترض ككل مرّة، لم يستطع القدوم معها، رغم ما فعله والده إلا أنه حين يفكّر أن مالك قضى عليه يشعر بالألم، مالك الذي ربّاه صغيراً وقال له ذات يومٍ "أخشى أن تكسر اليد التي مُدت لك" لا يعرف أيكرهه؟ أم يشكره؟ كان له أباً وسنداً وعوناً وحين كبر قضى على والده وصار وإيّاه أعداء.

بعد ساعة من صراخ سارة الباكي، وصلت صبا والطبيبة، دخلت عليها مسرعة، وضعت حقيبتها وفتحتها وبدأت تساعدها على إتمام الولادة، كانت ولادة متعسّرة، وقف مالك في الخارج يدعو الله ألا يصيبها مكروه:

- يا الله أعرف أني عبدٌ مليء بالمعاصي والذنوب، لكنها يا الله بريئة منها، هي لا ذنب لها في ذنوبي، طهّرها مني يا الله، ولا تتركها تحمل وزري عمراً كاملاً، لا تحمّلها إصراراً أكبر من طاقتها، كن لطيفاً بها فهي ملاك احتوت شيطاناً ولا ذنب لقلبها فيما احتوت، اجعلها في عنايتك ولا تحرقها بنيراني.

انسكبت دموعه وهو يقرّ بذنوبه، خائف من خسارة سارة، لقد وعدته أن تظلّ رفيقته العمر كله ولا يمكنها أن تحنث بوعدها، سارة الوحيدة التي لم تخذله يوماً وما سُجّل ضدها خيبةٌ أو خذلان. كلّما ازداد صراخها ألماً انسكبت عبراته خوفاً عليها. استمع أخيراً إلى صرخات طفله الأولى، هرع إليها، كفكف دمعه، اقترب من الباب، كاد أن يُدير المقبض، فسمع الطبيبة تقول:

- يا إلهي ما هذا إنه يشبه المسخ! وكأنه بذرة الشيطان.

كانت الجملة بمثابة الصاعقة للجميع، أعادت إليه أعواماً من القهر والبؤس، لم يستطع فتح الباب ففيه هلاكه وهلاك الجميع، عادت دموع الخطيئة للانسكاب مجدداً، يا إلهي إن كان هو ابن الخطيئة فما ذنب صغيره ليدفع ثمن خطيئة جده؟ خرجت الطبيبة بعد أن أعطت تعليماتها لصبا وسارة. نظرت إلى مالك دهشة من جماله وجمال زوجته، فكيف أنجبا طفلاً بهذا القبح، طلب من السائق أن يعيدها إلى دارها، لن ينتقم منها، صار يكره الانتقام، خرجت صبا وطلبت من مالك أن يدخل ليرى طفله وزوجته، أومأ

برأسه، مشى إليها وكأنّه يُساق إلى إعدامه، قبّل جبهة سارة، ، أعطته صبا مولوده، حمله بحذر، تأمل براءة الصغير وكأن الماضي عاد وارتسم بألمه في ذهنه، نسخة الماضي المكررة، دارت ذكرياته جميعها في رأسها وكلام الناس يتردد في رأسه (مسخ، لعبة الشيطان، أنا جمّلتك وكنت قبيحاً، قبيح الوجه) مشى والطفل بين يديه، (يوم تخلّت عنه والدته)، خرج من القصر، (أوّل ليلة في القبو)، وضع الطفل جانباً، (الاثنا عشر عاماً في القبو)، حمل المعول وبدأ الحفر، (آخر ليلة في القبو)، ضربات المعول كانت قاسية تزداد معها ذكرياته، (حياة التشرّد القاسية)، انتهى الحفر، مسح عرق جبينه بكفّ يده، (ما فعله الطبيب به من سخرية واستهزاء حتّى حوّله عبداً لرغباته)، وضع يديه على رقبة الصغير وذاك يصرخ، شدّ كلتا يديه، أصبحت بشرته حمراء، زرقاء، سوداء، مات الصغير، وضعه في الحفرة، ألقى التراب عليه، عاد إليهما وكأنه ما صنع شيئاً، غسل وجهه ويديه من التراب، دخل وارتمى على الأريكة مقابل السرير، نظرت سارة إلى صبا مستفهمة عن صغيرها، ثم أعادت النظر إليه وسألته متوجسة أن ما كانت تفكّر به قد حصل:

- أين الصغير؟
- مات.

كلمة بسيطة قتلت روحها، لم تستطع استيعاب الأمر في البداية، لقد منحته إياه وهو بكامل صحته، أفاقت صبا من ذهولها وصرخت في وجهه، بينما تلك ما تزال في صدمتها:

- وكيف مات؟

حينها أفاقت سارة من صدمتها، وصرخت ثائرة في وجهه:

- لا يمكنك أن تقتله.
- هذا العالم مليء بالشياطين، لا حاجة لشيطان آخر.

خبّأت سارة وجهها بين يديها وبكت، وأول مرة لا يكون ملجئها ولا تهرب إليه، أول مرّة ترى حضنه شوكاً، بينما أسرعت صبا لاحتضانها وتهدئتها بكلماتٍ حانية، قالت صبا ودموع عينيها انسكبت على قسوة مالك:

- أنت شيطان يا مالك، أيعقل أن تقتل وليدك؟

صرخ في وجهها:

- لا أريده نسخة شبيهة بي، يعيد معاناتي ذاتها.
- لكن الحكاية اختلفت يا مالك، ستعتني به ووالدته ستحسّن خلقته.

أشاح وجهه عنها، بينما ابتعدت سارة عن أحضان صبا وقالت:

- لا أريد البقاء هنا يا صبا، خذيني معك.

أومأت برأسها، بينما صاح مالك:

- أستتركينني يا سارة؟

لم يقابل إلا بالصمت، ساعدتها صبا لارتداء ثيابها، فصاح مرّة أخرى:

- سارة يا سارة، أنتِ وعدتني أنكِ باقية مهما حصل.

انتهت من ارتداء ثيابها، أمسكت صبا يدها، خرجتا من الغرفة، وقف أمامهما، وقال برجاء:

- لا تخذليني يا سارة، عاهدتني فيما مضى على البقاء، لقد دعوتُ الله الآن أن يطهركِ مني، قصدت أن تتطهري من ذنوبي فلا تقعي بها، لم أقصد أن تتخلي عني. أرجوك اعدلي عن رأيك.

تجاوزته وأكملت سيرها باتجاه الباب، أسرع وأمسك يدها، وقال:

- سيحمل رحمك طفلاً آخر، لن أقتله، سأدعه لك.

سحبت يدها من يده، فتحت صبا الباب، أغلقه وهو يتوسّل لها:

- تخلّيك عني يعني موتي يا سارة، أنتِ عاهدتني على البقاء، أخبرتني من قبل أنك ستحولينني إلى إنسان، سأساعدك في ذلك، لكن لا تخوني العهد كالباقيات، لم أعد أرغب بالعودة إلى الوحدة،

إني أخافها يا سارة، لم أعد أطيقها ستقودني إلى الجنون ذات يوم، ابقي وسأكون لك كما تريدين، ستنجبين عشرة أطفال ولن أقتلهم.

فتحت الباب وغادرته ولكن قبل أن تبتعد استدارت ونظرت إليه فرأت مالكاً القديم، تأمّلت سحابة الألم المرتسمة على وجهه وهي تمطر دموعاً، تقسم أنها تحرق وجنتيه الآن، مسحت دمعتها بكفّ يدها وقالت:

- حاولتُ تحويلك إلى إنسان، لكنّك مصرٌ أن تبقى شيطاناً.

تمت

٢٠٢٤/٨/٢٥

من رحم الألم يولد الإبداع

كان ملاكاً طيباً ، لكن المدينة احتضنت الجميع ماعداه ، فتنامت كراهيته لها وتزايدت ، متجاهلاً الجميع .

حتى أصبح شيطاناً يريد أن يحرق المدينة ليضئ ظلمة روحه ويدفئ نفسه على أمل أن يطفئ برد تلك الليالي .. لم يكن ليصبح شيطاناً لو كان له مكاناً بينهم ... كانت ذكرياته عنهم نادرة ، فأعجب بحقيقة أنه الأقوى ، وبدأ في خلق ذكرياتٍ من حطام أيامهم .